أنَـا والأَنَـا

سلام عيدة

الكتـــــــاب: أنا والأنا

المــؤلـــــف: سلام عيدة

لوحـة الغـــلاف: إهداء أ. دعاء السيد. تصميم أ/ إيمان صلاح

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقـــم الإيـــداع: 25460 / 2014

الترقيــم الدولــي: 5 - 005 - 779 - 977 - 978

الإخــراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 6 ش التحرير، الدور 18، أمام محطة مترو البحوث، الدقي، الجيزة

هاتف: 0237621688 - موبايل: 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني:info@ibda3-tp.com

أنَـا والأَنَـا

روايـــــة

سلام عِيدة

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

الإهداء

إليكم أنتم في صورةِ هُم

وإليهم هُم في ملامحكُم أنتم

***

إليكَ أنتَ بالطَّبع

إلى عينيْكَ، حين تتساقط الأشباهُ على الأشباهِ فتكونَ استِثنائِيَ الجميلَ

الصّادقَ

تقرؤُني، فأَفْهَمُني أكثر

إليكَ أنتَ السِّريَّةَ في الأنا

خُذْني إليكَ طفلةً لصدركَ، وامرأةً لِلَيْلِكَ، وصديقةً لسرِّكَ، وأُمًّا

لحماقاتِكَ، ليكون احتلالُك لي كاملاً في صورةِ وَطَن.

***

وإلى كلِماتي حين لا أكونُ هنا، فتصيرَ صَوْتِي

***

إلى والديَّ العزيزيْن، حين زرعا البِذْرة ثم وَثِقا وآمنا بأنَّ الحَصادَ سيُنتِج

ظِلّاً

يكونُ لهُما في يومِ حَرٍّ

فخرُكما بي، فَخْرٌ لي

***

شُكر وتقْدير

شكرًا لإبداع لأنَّها إبداعٌ يَرتقي ومعَهُ نَرتقي

شكرًا للدكتور عيد إبراهيم لأنّه هو كما هو؛

أبٌ روحيٌّ وأخٌ مُخلِصٌ وصديقٌ صدوقٌ وصاحبُ رسالةٍ ساميةٍ، يبذلُ لأجلِها مِن جُهدِه جُلّه ومِن فِكْرi كُلَّه.

وكلُّ الشُّكر للأستاذ عاطف عبد الرحمن، حينَ قال لي مرةً في حديثٍ لنا: «لا تَجعلي الآخرَ الغريبَ يسطُو على أفكارِكِ ورُدودِ فِعْلِكِ.» وحينَ

سألتُه مُستفهِمةً عن مَقْصَدِه، قال: «الآخرُ الغريبُ هو كلُّ ما ليسَ أنتِ على حقيقتكِ وطبيعتكِ، هو تأثيرُ الآخرين فيكِ، ومَخاوفِكِ مِنْهم، هو كلُّ ما مِن شأنِهِ أنْ يجعلكِ لستِ أنتِ كما أنتِ.»

فبدأتْ رحلةُ الأسئلةِ والتأمُّلِ، ثم ناقشتُ الدكتور عيد فيها، فكان لنا حديثٌ شائِقٌ طويلٌ حولَ الكاتب وأثرi في التحكُّم في وَعْيِ القارئ والتأثيرِ عليه، فكانتْ نهايةُ رحلةِ التأمُّلِ هذه الرواية.

تنـــويه

الأحداث الواردة بالرواية غير حقيقية
ولا تمت للواقع بصلة، وأي تشابه بينها
وبين الواقع هو من خيال المؤلفة.

كما العادة، وقبل البِدْء!
ثرثرةٌ لابُدَّ مِنْها

أنا لا تُغْريني النهاياتُ، ولا تَسْتَهْويني الخَواتيم، تقولون إنَّني دومًا في الفيسبوك أُردِّدُ عبارةَ: «العبرةُ بالخواتيمِ»؟ حسنًا أيُّها الفيسبوكيون أصحابُ الذاكرةِ القويَّةِ، تبتسِمون الآن؟ لا بأسَ، أَعْطوني فرصةً للتوضيح:

النهاياتُ هي مَجموعُ الخُطُواتِ التي سِرْتَها في طريقٍ ما، اخترتَهُ بكاملِ إرادتك، بِوَعْيكِ أو بـلاوَعْيِك الكامِنِ فيك.

وما دامت العبرةُ بالخَواتيم، فالخواتيمُ ليستْ أكثرَ مِن مُؤشِّرٍ على صِحَّةِ أو خَطأ الطريق الذي سلكتَه؛ لذا فالخطواتُ التي تَصُفُّها خلفَ بعضِها والإشاراتُ التي تَتْبَعُها، والقراراتُ التي تتَّخِذُها، هي التي تقرِّرُ صِحَّة اختياراتك. وما النهاياتُ إلّا مجموعُ البدايات.

وبما أنَّ روايتي، لا تهتمُّ بالسؤال: ماذا بَعْدُ؟ بقَدْرِ ما تهتمُّ بجواب السؤال: لماذا وكيف حصل ذلك؟

وكما أنَّني لا أُخفي عن القارئ العزيز بأنَّ لي نوايا شريرةً هنا، بأنْ أَحْمي سطور روايتي مِن القُرّاء المُتلصِّصين الذين يَسْتلذُّون بقَلْبِ الرواية رأسَها على عَقِبٍ لقراءة النهاية أولاً، فيَستعجِلون رُؤيتها عاريةً تمامًا أمامهم، بلا مقدماتٍ معقولةٍ لمُداعبة السطور، أو خَلْعِ ما يستُرُها رُويدًا رُويدًا مِن مَنطِقيّةِ الأحداث، فأنا أرى القارئ الذي يُسارِع إلى فتح الصفحةِ الأخيرةِ مِن العمل مَلَلاً أو فُضولاً، ليس سوى مُغتصِبٍ أو قاتلٍ مع سبق الإصرار للأحداث، كما أنَّني بِطَبْعي يُثير غضبي مَن يَتَلبَّسُهم الفضول.

كما أنَّني أتحدّى نفسي والقارئ حين يظنُّ النهايةَ الساذجةَ هي التي

تُحدِّد قيمة العمل، فأنا لا أريد قارئًا ينتظر ماذا سَيَحِلُّ بالبطل المحبوب ليقرِّر مدى تأثُّره بالعمل! فالرواية ليستْ فعلاً كرتونيًا ولا روايةً شرقيةً ولا (حواديت جدَّتي) التي ستسمعُ في خِتامها «عاشوا في تبات ونبات وخلّفوا صبيان وبنات»!

لذا؛ قمتُ بكتابةِ النهايةِ بدايةَ كلِّ فصلٍ، ثم بدأتُ في سرْدِ التفاصيل التي أَوْصَلَتْنا لهذه النهايات المَرغوبةِ أو المُرْعبة.

كذبة ناصعة

«لولا السَّرابُ لَمَا تقدَّمتُ خُطوةً بعد خُطوةٍ، سَرابٌ يَمنحُني أملاً كاذبًا لأمضي خيرٌ مِن خَيْبةٍ صادقةٍ تُقْعِدُني».

طَغَى مَدُّ الليلِ بعدَ جَزْرِ النهار، فانْسَلَّ الجسدُ مِن مُحيطِه العائِمِ، يَتَقاذفُه

نحو السَّريرِ ثِقَلٌ مِن النُّعاسِ، وغِلافٌ مِن التَّعبِ، ورغبةٌ عارِمةٌ لاقْتِناصِ فرصةِ التوحُّدِ مع الذات، ليَحظى ببعضِ الهدوء بعد هذه الفوضى الطاحِنَةِ في الداخل، بينَ حَيْرةِ الثابتِ في بَعْثَرة العَوارِض، وسَطْوةِ الآخرِ على مَلامِحِ الجَوْهرِ، والحربِ الدائرةِ بينَ «أنا» كما هي عليه، و«الأنا» كما يجبُ أنْ تكونَ عليه.

استسلمَ الجسَدُ، فطافَ على السَّطْحِ تتقاذَفُه أمواجُ الاسترخاءِ قبلَ أنْ يَنْقَضَّ عليه النومُ ليَغْرقَ في بحرِ الأحلامِ، فانسَحَبتِ النَّفْسُ مِن عُلْبَتِها بهدوءٍ شديدٍ ووقفتْ غيرَ بعيدٍ تتأمَّلُ المَشهد؛ صراعٌ عنيفٌ تُحاول فيه «أنا» دفع «الأنا» نحو الأعماقِ، قبل أنْ تُخَرْبِشَ بريشَتِها الواقِعيّةِ مَعالِمَ حُلُمٍ بدأ يتشكَّلُ، كانت النَّفْسُ تَلْهَثُ مع كُلِّ صراعٍ بينهما حتى باتتْ قَلِقَةً حزينةً مُكتئبةً لا تعرِفُ كيف تتصرَّف في هذه الحرب التي لا تنتهي، كُلَّما اشتدَّ الصراع بين «أنا» و«الأنا» ازداد وَجَعُ النَّفْسِ حتى صرختْ مُسْتَكْفِيَةً، وقرَّرتْ هذه المرة أنْ تتصرَّف.

همستْ تُنادي مُحاوِلةً قدْرَ الإمكان ألّا تُوقِظ الجسد المُنْهَك والمُغْلَق:

- هي! أنتما! «أنا» و«الأنا» اخرُجا حالاً، لي معكما حديثٌ مُهِمٌّ.

- عندنا شَغْلٌ مَهِمٌّ، ألا تَرَيْنَنا أيَّتُها النَّفْسُ مَشغولَتان بنَسْجِ حُلُمٍ بديعٍ؟

- آه! تتلاعبان بي مِن جديدٍ، لا تفرحا كثيرًا، فالحُلُم لا يتحقَّقُ طالما الجسدُ نائمٌ، فأَقْبِلا! عندي ما هو أهمُّ مِن مُجرَّدِ الغرق في الأحلام... أو الأوهام.

- دومًا تُفسِدين علينا مُتعتَنا. ألا تُحبِّين أنْ تعودي للجسد وقد أزهرَ بحلمٍ جديدٍ؟

- حسنًا، لكنْ حين يستيقظ الجسد صباحًا سأبتلعُ الحُلُم في أعماق اللاوعي وسيضيع الجهدُ بلا طائلٍ.

- تبًا لكِ! كثيرًا ما تفعلين ذلك.

ثم انسحبتْ «أنا» و«الأنا»، لتُحلِّقا حول الجسد والنَّفْسُ أمامَهُما تَتَمَلْمَلُ مُصعِّرةً خدَّها وقد شَبَكتْ ساعِدَيْها على صدرها بغضبٍ، ثم قالت دون أنْ تلتفت:

- حتى متى؟

- ماذا؟!!

زفرتْ ذرَّاتٍ مُشعَّةٍ مِن الحقيقة حول «أنا» فسعلتْ بشدّةٍ، وهي تقول:

- تكادين تخنُقينَني.

فردَّتْ عليها «الأنا» سريعًا:

- لأنَّكِ دومًا تُنْكِرين الحقيقة، مع أنَّها علاجُكِ الشافي.

- واضحٌ، دواءٌ حَدُّ الاختناق! المهم، ماذا تريدان الآن؟

قالت النفس:

- ألا تُلاحظين أنَّ الأمرَ زاد عن حَدِّه هذه المرة واستطال حتى غِبْتُ في شُقوق الضياع وتَحَوْصَلْتُ في زوايا الأسئلة؟ انظري إلى حالي، لماذا تحاربين «الأنا» فيَّ دومًا؟ لماذا أشعرُ بضياعٍ بينكما طوال الوقت؟ لماذا أنتما في صراعٍ دائمٍ؟

نظرتْ «أنا» إلى النَّفْسِ، فابتلَّتْ شفقةً، نظرتْ سريعًا إلى «الأنا» بنظرةِ

اعترافٍ سريعةٍ، ثم هربتْ بعينيْها لتُعيدَ النَّظر إلى الجَسَدِ المُسجّى وقد أحسَّتْ ببعض التَّوَهان لِمَا سبَّبَتْه وتُسبِّبُه. قالتْ لها «الأنا» بتأنيبٍ مَمزوجٍ باستدرارِ الشفقة:

- انظري إلى حال النفس المسكينة، انظري إلى الأحلام الحزينة، تأمَّلي بَعْثَرَةَ الآخرينَ فيها وضَياعَها بيننا، بين السطح والأعماق، بين الطموحات والرغبات، بين ما تتمنّى وما تستطيع، ألا ترينْ أنَّكِ السبب في كُلِّ ذلك؟ هذه أنتِ حيـ..

- قلت لكِ اسمي «أنا».

- حسنًا! هذه «أنا» الظاهرة حين تسمحُ للآخر الغريب أنْ يتطاولَ عليها، تصبحُ مجرَّد رُقَعٍ فسيفساءٍ غيرِ مُنتظمَةٍ لا معالمَ لها ولا حدود. لماذا تسمح «أنا» للآخرين بالسَّطْوِ عليها؟ أنتِ تُؤذين «الأنا» في الأعماق، حينما أحاولُ أنْ أكون كما ينبغي، تخربشين الوضوح وتفسدين معالم الطريق.

- أنا سبب كُلِّ ذلك؟ أيَّتها المغرورة المُتعجرِفة الضعيفة البائسة، ليس

ذنبي أنَّ صوتَ «الأنا» في النفس ضعيفٌ لا يكاد يُبين.

- بل قولي عن نفسك: أنا مُتلوِّنةٌ ضعيفةٌ، وجهٌ مرقَّعٌ قبيحٌ.

- كُلٌّ يتكلَّم عن نفسه أيتها اللحوحة المُزعِجة.

قالت النفس بحزمٍ حزينٍ:

- كفاكما، لنعقد هُدْنةً.

ردَّتْ «أنا»:

- لنُشعِل الحرب أولاً! فلا هدنةَ قبلَ الحرب.

فقالت الأنا:

- وأنا موافقةٌ.

- لنتَّفقْ على التفاصيل إذن، لتكون حربًا شريفةً.

- لِنَبدأْ ببيانِ مهامِّ ومراكزِ اهتمامِ وحدودِ جغرافيّةِ كُلٍّ مِنّا في النَّفْس، ليعرف كُلٌّ حدوده جيدًا.

قالتْ لهما النفس:

- اسمعاني جيدًا وجِدًّا: بِتُّ لا أعرِفُني، لا أدرك الوهم مِن الحقيقة، لا أعرف الحقيقيّ مِن المزيَّف، حين أقول «أنا» لا أكون واثقةً هل هي «أنا» فعلاً، «الأنا» الحقيقية، أم أُخرى غيري غريبةٌ تهمس فيَّ فأظنُّها أنا! لا أعرف حقًا، حين أقول «أنا» هل أكون صدًى لذاتي أم صدًى للآخرين، لذا أطالِبُكما بالكَفِّ عن هذا الصراع، ومنذ البداية أعلن انحيازي التامّ للأنا بجوهرِها وحقيقتِها، رغم عتبي على ضعف صوتها، لكنَّ النفس تحبُّ أنْ تكون ذاتها، لكنْ «أنا» خادعةٌ جدًا ومراوغةٌ رغم علوِّ صوتها ووضوح ملامحها. هذه الحرب استنزفت كُلَّ جواهري وأهدرت كُلَّ طاقاتي. إمّا أنْ تَتَّحِدا فتصيرا واحدًا ويصير السطح مرآة الأعماق، أو سأذبل وأذوي، عليكما أنْ تتَّفِقا رجاءً.

قالت «الأنا»:

- لا حيلةَ في يدي أُقدِّمُها، لستُ ساحرًا يُخرِج الحقيقة البيضاء مِن قُبَّعات الأعماق بلحظةٍ.

وقالت «أنا»:

- ولا حيلةَ لي، لا أستطيع السيطرة على هذه المتمرِّدة المدعوَّة «الأنا»، كما أنني لا أستطيع ألّا أبدو جميلةً في عيون الآخرين. لستُ زجاجةَ عطرٍ لا تختلط بغيرها، أنا فقط إسفنجةٌ تمتصُّ الواقع المُحيط.

مرَّتْ لحظاتُ صمتٍ صعبةٍ، تراشق الكُلُّ فيها نظرات العَتَبِ وربطُوا بعضهم بحِبال الاتّهام، حتى تنحنح يومٌ جديدٌ يطرُق الأعتاب، وتثاءبت حواسُّ الجسد استعدادًا للاستيقاظ، فقالت النفس على عجلٍ:

- هذا تحذيري الأخير لكما، اتَّفِقا على عَزْفٍ واحدٍ لا نشازَ فيه، أو افْتَرِقا، خُوضَا حربكما النظيفة وقرِّرا في النهاية...

ثم لمْ تُكْمِل، فهُرِعتْ إلى عُلْبَتِها واستيقظ الجسد.

نظرتْ «أنا» و«الأنا» إلى بعضهما، وهُما حائِرَتان، قالت «الأنا» بأسفٍ:

- كنتُ سأُخبِرُ النفس أنَّ الحلَّ عندها، حين تقرِّرُ ماذا تريد.

- كنتُ سأُخبِرُها أنَّها السيِّد الوحيد الذي يقرِّر أيَّ مرآةٍ يكون، مرآةِ الداخل (ونظرت إلى الأنا) أو مرآةِ الخارج (ونظرتْ إلى نفسها).

ثم قالتا معًا:

- لكنَّها الحرب إذنْ، وعلينا أنْ نخُوضَها، في تلك النفوس الحائرة ذاتِ الخُطُوات المُتعَثِّرةِ، ولْنَرَ كيف سيُحْسَمُ الصراع.

واتَّفقَتَا أنَّهما في كُلِّ نَفْسٍ ستخوضان حربهما.

«١»

هنا، تَصبِحُ النِّهايةُ، مُقدِّمةَ بدايةٍ؛ فكُلُّ نهايةٍ ليستْ إسْدالَ سِتارٍ، حتى في المسرح حين يُسدَلُ السِّتارُ تستمرُّ الحياةُ خلفه، ويعود المُمثِّلون لمُمارسة حياتهم الطبيعيّة، ولعلَّ المسرحيّة تستمرُّ على أعتابِ الحياة، فكُلُّ نهايةٍ ليستْ إلّا قرارًا بالتوقُّف

عن الاستمرار في المُتابعة. ينتهي هذا الفصل بصراعٍ عنيفٍ بينَ كُلِّ أبطال الرواية، وبين «أنا» و«الأنا» بالطبع، صراعٌ شديدُ الإغراءِ والإغواءِ بالغُموضِ والانجرافِ كثُقْبٍ أسودَ يجذِبُ الأبطال بعنفٍ وبضعفٍ نحوه ليبتَلِعَهم، أمّا كيف حصل ذلك! فالسطور التاليةُ تُجيب، لكنْ لا تتوقَّع عزيزي القارئ، هدوءً أو سلامًا نفسيًا ما، وعليك توقُّعُ أنْ تُقابِل نفوسًا مُرهَقَةً، وعقولاً مُتْخَمةً بالكثير.

*****

- أنا عبقريٌّ.

قالَها وهو يُمرِّرُ إصبعه الوُسطى على حاجِبِه الأيمن سريعًا، وفي عينيْه بريقُ التحدّي الواثقِ ثقةَ صَقْرٍ في مخالِبِه.

- أنتَ مجنونٌ!

- لا يَهُمُّ، العِبْرةُ بالخَواتيم. جنوني حُلْوٌ.

- إذنْ، أنتَ مغرورٌ.

- العبرةُ بالخواتيم! النتيجةُ التي تتجلَّى أمامي على خشبةِ المَسرح تُثْبِتُ بِما لا يَدَعُ مجالاً للشَّكِ أنَّني عبقريٌّ وأنَّني على حقٍّ. أنا أفتخرُ بنفسي وأستحقُّ أنْ أشكُرَني.

ثم اقتربَ مِن المرآة أمامه وطَبَعَ قُبْلَةً عليها، قائلاً ببهجةٍ لمُحَدِّثِه في المرآة وهو يلوِّح بإصبعه السبّابة:

- رغم أنَّني مُنتبِهٌ جدًا لهذا الحديث، ولهذا اللوم، إلّا أنَّني أمنَحُكَ قُبْلةً كمُكافأةٍ، وامنحُ نفسي الواثقة قُبْلَةً أخرى، وأعتذرُ لأنَّني لا أستطيع طَبْعَها على خدِّكَ/ خَدِّي!

ثم قَهْقَهَ بصوتٍ مُرتفعٍ قائلاً لنفسِه وهو يَرْمُقُها في المرآة:

- أنا مجنونٌ حقًا، أعترفُ، لكنَّه جنونٌ حُلْوٌ لأنَّه واعٍ. والآن لنذهبْ ونتابعْ المسرحية فهي على وشك الانتهاء.

وقف وراء الكواليس، وعيناه تَتَراوحان كالشَّهيق وهو يتأمَّلُ روعةَ أدائِها، والزفير وهو يراقب ردَّة فِعْلِ الجُمْهور، ثمّ شهقتْ عيناه شهقةَ النشوةِ مع خِتام المسرحية.

تصفيقٌ حادٌّ مِن كُفُوفٍ مَربوطةٍ بكهرباء القلبِ وِفْقَ الدَّفْقِ الشُّعوريِّ الذي اعتراها لمشاهدة هذا العرض المسرحيِّ المُبْهِر، خاصَّةً حينما ظهرت البطلة تُحيِّي الجمهور المسحور بأدائها المثاليّ.

لم يتوقف التَّصفيقُ إلّا مع انتهاء الدَّفْقَة الشُّعوريّة العنيفة التي هزَّتْ قلوبهم وأفكارهم أمام هذا الإبداع الفنيِّ في التعبيرات المَنحوتةِ بدِقَّةٍ كسهامٍ رشيقةٍ تَعْبَثُ بِوَعْيِ العقل، والأداء المُؤمِنِ بالدَّوْر حدَّ اليقين يتلاعبُ بأشواق القلب.

رغم ذلك، لم يَحْظَ المؤلِّف المسرحيُّ لدى ظهوره بما حَظِيَتْ به الممثلة مِن حماسٍ، فالعيْنُ دومًا أسرع مِن السمع إيمانًا عند أغلب الناس؛ كانت الممثلة مُعجِزةً فنيّةً تتجسَّدُ أمامهم، أمّا المؤلِّف فلمْ يكنْ بنَظَرِهم سوى راصِفٍ لكلماتٍ ميْتةٍ أحياها التمثيل.

كادت ابتسامةٌ ساخِرةٌ ترتَسِمُ على زاوية فمه، أمام هذا الجمهور الذي لا يُدرِك سوى ما يراه مُجسَّدًا أمامه، تمامًا كفِتْنَتِهِم بالوجه الصبوح عمَّن أنجباه، كأنَّه نَحَتَ شكلَه أو لم يكن امتزاج مَلْمَحَيْن، لكنَّ المؤلف المسرحيّ حَجَبَ ابتسامته ببراعةٍ كما يحجِبُ الزِّحامُ الاهتمامَ.

*****

دخلت المُمثِّلةُ غرفة تغيير الملابس، وتَبِعَها المؤلِّف المسرحيّ، طرق الباب:

- مَن هناك؟

- خضر، افتحي، حتى لو كنتِ تبدِّلين ملابسك!

- حتى لو كنتُ أبدِّلُ ملابسي!

قالتْها بتعجُّبٍ مَصحوبٍ بضحكةٍ سريعةٍ، ثم فتحت الباب بابتسامةٍ عريضةٍ مُشرِقةٍ، وثيابُها لازالتْ على حالِها.

- تفضَّلْ.

- أهنِّئُكِ لهذا العرضِ البديعِ يا سيدة بلقيس.

قالها مع انحناءةٍ مسرَحيةٍ كأنَّه أحدُ الفرسان الثلاثة.

ردَّتْ عليه بتحيةٍ مِن رأسِها، ثم جلستْ أمام مرآتِها، تُزيلُ عنها غطاء الرأس الخاصِّ بالزيِّ المسرحيِّ، وبقايا ماكياجها، مُتيحةً له فرصةَ الحديث قبل أنْ تطرُده مِن الغرفة، كعروسٍ تحتاج خلوةً.

- ما رأيكِ بأنْ أدعُوَك لتناول فنجان قهوةٍ؟

- أحتاجُهُ بشدَّةٍ (أجابت بلهفةٍ)، فالقهوة حصانٌ برّيٌّ يجري في دمي، يوقظُني مِن خمر كلماتك.

رفع حاجبيه دهشةً، وقال:

- ما هذا! هل تنافسينَني في التلاعُب باللغة! عليكِ باليأس فهو دواءٌ شافٍ لكِ، لن تبلُغي شَأْوي.

ضحكتْ كطفلةٍ، وقالتْ:

- لا تَخَفْ، لستُ معنيةً بمنافستِكَ، أنا فقط مُتأثِّرةٌ بكَ. هيّا اخرجْ سريعًا،

لقد قبلتُ دعوتَك، أراك في المقهى.

ثم دفعتْهُ برِفْقٍ نحو الباب، لكنَّه قاوَمَ قليلاً ليُرسِلَ لها قُبْلةً هوائيةً بشفتيْه وعينيْه معًا، قَبِلَتْها بابتسامةٍ وقابَلَتْها بقُبْلةٍ عَبَرتْ أصابعها قبل أنْ تَصِلَ خدَّه، كأنَّها تخجلُ مِن شكْلِ شفتيْها فتُغَطِّيَهُما بأصابعها! أو كأنَّها تُقبِّل نفسها قبل أنْ تُقبِّله، أو كأنَّها ترغب باستقرارها على خده مع نفخةِ هواءٍ بسيطةٍ تمتزج بأنفاسه.

في المقهى، جلس خضر يرتَشِفُ قهوته السَّادَة مُكتفيًا بحلاوة النصر في فمه؛ نصرٍ شعبيٍّ أدبيٍّ شاركَهُ فيه الجميع استمتاعًا، ونصرٍ سرّيٍّ فكريٍّ شَعَرَ بأَثَرِه الجميعُ وإنْ لم يدركْه أحدٌ.

كان ينتظر بلقيس كما انتظرها سليمان النبيّ وعرشُها بين يديْه قبل أنْ يخوضا حرب الحواراتِ الرشيقة، وهما يتلاعبان بالعبارات الأنيقة.

أقبلتْ بلقيس تُعانِقُ الفرح، وتُحيطُ بها حاشيةٌ مِن الثقة والنّصر والجَمال والشعور بالأهمية، تُغازِلُ مِعصَمَيْها ضِحْكاتُ الأَساوِر، وتُداعِبُ أذنيْها همساتُ قُرطِها الغجريّ المُستدير، وفي أصابِعِها ضجَّت الخواتم

حتى احتجَّتْ مِن الازدحام، كانتْ أنيقةً تُحِبُّ تزاحُم الإكسسوارات حول مَلامِحِها الأنثويّة، لطالما أدهَشَها كيف أنّ صدْرها مَكْمَنُ الأنوثة المُغرية، والأمومة العذبة معًا! كانت ترى أنّ الله جمع بينهما في جغرافيّةٍ واحدةٍ لأنَّ أحدَهما يؤدِّي إلى الآخر بشكلٍ طبيعيٍّ تلقائيٍّ، لعلَّ كثرة تفكيرها في هذا الأمر كلَّما اعتنقت قلائِدَها، ثبَّتَ في ذهنها فكرةَ أنَّ الحبَّ لابُدّ أنْ يقود إلى الزواج المُنتِجِ للأمومة الحلوة.

جلستْ قُبالتَه وابتسامةٌ عريضةٌ تحتلُّ ملامح وجهها، رافقتْها تنهيدة ارتياحٍ وهي تُلقِي بنفسها على الكرسيّ بخِفَّةٍ مُثيرةً صليلاً هادئًا بإكسسواراتها لتُخرِبِشَ تركيزه الواعي في ملامح صوتها وهي تقول له:

- مبروك هذا النجاح، أثناء خروجي لاحقَنَي الصحفيون يبحثون عنك، كِدْتُ أورِّطُكَ بهم، لكنِّي تذكَّرتُ كُرهَكَ لهم.

ابتسم وهو يجيب:

- مبروك عرضُكِ على خشبة المسرح، أنتِ ضيفة الشرف في هذا النجاح الذي صنعتُه.

نظرتْ إليه وهي تهزُّ رِجْلَها، خطر لها: «هذا صحيحٌ، لكنَّك لن تُحِبَّ منّي أنْ أنْسِبَ النجاح لنفسي دونك، لذا تراني مُجرَّد ممثلةٍ، مؤدِّيةٍ.» ثم قالت له:

- النجاح يعود إليك في الأصل، فأنتَ محرِّكُ الدُّمى وراء الكواليس.

جلجلتْ ضحكتُه، وهو يخترقُ كلماتِها بسمعِه المُرهَف، وأعماقَها بنظرتِه الثاقبةِ، لولا أنَّ النادل قطع استمتاعه، تأمَّلَه مليًا وهو واقفٌ ينتظر الأوامر، ثم قال لها:

- ماذا ستشربين؟

- ألمْ نتَّفق أنَّ القهوة مَشروبَنَا الثقافيّ؟!

- لا شكَّ، هي حاضرةٌ دومًا، إمّا في الدم أو على الطاولة حين ينخفض مَنسوبُها في القلب.

ابتسم، وأشار له بيدِه دون أنْ ينظر إليه، قائلاً:

- سمعتَ ما طلبتْهُ؟ السيدة بلقيس تريد أنْ تحقِنَ دمَها بالقهوة.

ابتسم النادل لهذا التعبير، أحنى رأسه، وذهب.

- ما رأيكِ في المسرحية الآن؟

- أعتقدُ أنَّها فكرةٌ بديعةٌ، كما قلتُ لكَ حين قرأتُها، أنْ تتحدَّث عن مفهوم الشرف الشرقيّ، وتربِط ذلك بقراءةٍ استقرائيةٍ لقصة يوسف النبي ومريم العذراء.

- هل شعرتِ بتغيُّرٍ في نظرتكِ للموضوع بعد العرض؟

- أشعرُ فقط بأني أصبحتُ أكثر قوّةٍ في التمسُّك بتلك الأفكار، وليس أكثرَ قناعةٍ.

هزَّ رأسه مُستفهِمًا، أعقبه بتأكيدٍ لفظيٍّ:

- لم أفهمْ، وضِّحي لي أكثر.

ثم أمسك بفنجانه مِن مُنتصفِه، فهو لا يحبُّ أنْ يُمسِكه مِن أُذُنه، ويرى تلك الحركة أنثويةً جدًا، بما تُتيحُه للأصبع الصغير مِن شرودٍ نحو الأعلى بعيدًا عن باقي الأصابع، كان يحبُّ القبض على فنجانه بأصابعه مُجتمعةً،

أخذتْ نفسًا عميقًا وقالتْ ببطءٍ وهي تفكِّر وتتحدَّث في آنٍ معًا:

- أقصدُ أنَّني أصبحتُ أقوى بشكلٍ عمليٍّ لتنفيذ تلك القناعات.

- وما الفرق؟

همستْ لها نفسُها: «وكأنَّك لا تعلُم الفَرْق! لماذا يسألُني عمّا يدرُكُه يقينًا؟ ويرهقُني بكثرة التوضيح وشدّة الوضوح الذاتيّ معه؟ لماذا يصرُّ ألّا يترك لي فرصةَ الاختباء قليلاً خلف العموميات؟»

سألها:

- ما بكِ؟ فيمَ أنتِ ساهمةٌ؟

- أبدًا، كنتُ أقول لك: أنا مقتنعةٌ بوجهة نظرك التي طرحتَها، لكنني بعد العرض المسرحيّ المُتكامِل شعرتُ بأنَّني أملك القوَّة الكافية لتنفيذها على أرض الواقع.

صمتتْ قليلاً، وعيناها تدوران بِحيرَةٍ، كأنَّها تُرتِّب أفكارها قبل أنْ تُطلِق العنان لكلماتها، سرحتْ في ذلك المشهد مِن المسرحية، وهي تلبِسُ

ثيابًا أشبه بثياب الراهبات، رماديّة اللون، مع غطاء رأسٍ أبيضَ، تتهادى في مِشيتها جيئةً وذهابًا في دائرةٍ ضيقةٍ، تحمِلُ في بطنها جنينًا وعلى كتفيْها هَمًا، وفي قلبها حيرةً كاملةً، وحولها رجالٌ كثيرون لا ملامحَ لهم، يلبسون أقنعةً سوداءَ اللون، وملابسَ ضيقةً تنطق مِن تحتها عوراتُهم بالاشتهاء، وأيديهم تمتدُّ نحوها لتَنوشَها، ويرقصون حولها كالشياطين بانتشاءٍ، كانت الأسئلة تخرج مِن خلف الأقنعة، تسألها:

- مَن هو؟

تلتَفِتُ بسرعةٍ نحو السائل خائفةً، لتقول:

- أين هو؟

- أيَّتها الفاسدة.

تدور نصف دورةٍ نحو الصوت، وتردُّ:

- أيَّتها المُعلَّقة بين الوعد وصدقِه.

فيُمسِكُها مِن خَصْرِها، تخافُ على الجنين فتحمِيه بيديْها، ليقذفَها نحو

سائلٍ ثالثٍ:

- كيف تَجرُئين على تلويثِ نفسِك هكذا؟

تضع يدها على فمها وهي تهزُّ رأسَها نافيةً، يقتربُ أحدُهم مِن أُذُنها وهو يمسح على صدره ببطءٍ حتى يصلَ إلى أسفل بطنه، ثم يهزُّ وسطه، ليهمس لها، وتتوقَّف هي عن الحركة تمامًا كأنَّها مشلولةٌ:

- جرِّبِيني!

تصمُّ أُذُنيْها فجأةً وهي تصرخ:

- لا ،لا ،لا! لم ألوِّثْ نفسي، لستُ بائعة هوى، لستُ فاسدةً!

تصمتُ قليلاً كأنَّها تسألُ نفسها لتجيب:

- أحقًا أنا فاسدةٌ؟

ثم يظهر صوتٌ مِن خلف الستارة:

- دعُوها وشأنها، هي بريئةٌ مِن مَطامِعِكُم.

تحوَّلتْ كلُّ العيون، حتى عيونِ المشاهدين نحو الصوت، الناطِقِ

بحُكْمِه المُحمَّل بإيحاءاتِ تفاصيلِ قضيةٍ، وحلِّ لغزٍ، وانقلابٍ على وشك الحصول. ظهر مِن خلف الستارة فتًى نحيلٌ، على كتفه حقيبةُ سفرٍ، يتسلَّح بتردُّد اللون الرماديّ مِن رأسه وحتى أخمص قدميه، فهُرِعَت إليه، وتفرَّق المُقنَّعون، ليقول:

- أنا والد الجنين، أنا لها وهي لي.

ران على ألسنتِهم الصمتُ، كغريبٍ ليلاً في مقبرةٍ، يُواجِهُ المجهول مِن كُلِّ ناحيةٍ.

تحلَّقوا حوله وصفَّقوا بأيديهم كأنَّها أجنحةٌ، بَدا منظَرُهم بملابِسِهم السُّود كغُربانٍ تحوم حول فريسةٍ ما، وبدأوا بالأسئلة:

- إذنْ، أنتَ الشريرُ الذي خَدَعَها.

- كلّا، لم أخدعْها.

- شريكتُكَ؟

- في ماذا؟

- الجريمة أيُّها المُشاغِب.

- وهل الحبُّ جريمةٌ؟

ثم يتوجَّه نحو الجمهور قائلاً:

- كُلُّكُم تتمنَّوْن لو أنَّكم مكاني، لكنَّ الدَّوْرَ المُتاح الوحيد لكم هو دور القاضي.

ثم يتوجَّهُ إلى الرِّجال المُقنَّعين قائلاً:

- هي لكُم!

يحدِّقون في بعضهم كسجناءَ عثروا على نفقٍ ضيِّقٍ يغصُّ بجسدٍ واحدٍ فقط للعبور، كلُّهم يريد الفتك بصاحبه قبل أنْ يغوص في النفق، وكلُّهم يريد دَفْعَ صاحبه تحسُّبًا لمصيدةٍ تعتَرِضُ طريقه.

- بلقيس، بلقيس.

انتبهتْ مِن شُرودِها الطويل في المسرحية، تلفَّتَتْ حولَها بدهشةٍ، ثم ابتسمتْ في وجهه ابتسامةً واهنةً:

- يبدو أنني لا زلتُ أعيش أجواء المسرحية حتى الآن.

- كنتِ شديدة الاستغراق، ها هي قهوتُكِ تكاد تبرد.

- لِمَ لَمْ تُنبِّهْني قبل أنْ تبرد؟

- كنتُ أتامَّلُ ملامحكِ، كانت مُبهِرةً، أخبريني بمَ كنتِ ساهمةً؟

رشفتْ مِن قهوتها الباردة، فسهُلَ عليها تناوُلُ جرعةٍ كبيرةٍ مِنها، نظرتْ في فنجانها، كان السائل ضحْلاً، تشاغلتْ عن انزعاجها مِن القهوة باردةِ الطعمِ بَخيلةِ الجرعات، قائلةً:

- كنتُ أتساءلُ: لماذا في المسرحية اتُّهِمْتُ، ثم لمّا ظهر تحوَّلتِ التهمة إليه، ثم ما وجهة نظرك حين أتاحها لهم قبل أنْ يحميَها مِنهم؟

- حسنًا، اشربي قهوتك، وسأوضِّح لكِ، ما دام هذا العقل الصغير لم يستوعب الأمر كفايةً. يا للنساء!

- ما بهنَّ النساء؟ لماذا تُصِرُّ دومًا أننا لسنا أهلاً للإبداع؟ بكُلِّ حالٍ، لِنَقُلْ إنَّني لمْ أستوعبْ كلامكَ كما تريدُ أنتَ! لي وجهة نظرٍ لكنني أحبُّ

سماع رأيكَ.

- مُراوِغةٌ! لنبدأْ بقصة مريم العذراء ولْنقارنْها بقصة النبي يوسف، فالموقفان يرمزان إلى القصتيْن.

تفتَّحتْ حواسُّها بدهشةٍ، شعرتْ أنَّها دخلتْ مغارة علي بابا للأسرار المكنونة، بينما هو يقول:

- حينما اختفى الذكر مِن قصَّة مريم العذراء، ماذا جرى؟

- ماذا جرى؟

نظر إليها باستهجانٍ، مع ابتسامةٍ ساخرةٍ، وقال بيأسٍ:

- تكرِّرينَ كلامي؟ تَتَغابين عليَّ؟

- لا أبدًا، أنا فقط لا أعرفُ عمَّ تسأل، أو ظننتُك ستُكمِلُ وحدَك!

- لا، أريدكِ أنْ تفكِّري قليلاً، حينما اختفى الذَّكَر مِن قصّة مريم، وجاءتْ تَحْمِلُ الرَّضيع، ماذا كان تعليقُ قومِها؟

قالت تَسْتَدِرُّ حليب أفكارها:

- اتَّهموها بالزنا!

- حسنًا، ومَن شريكُها في التهمة؟

فكَّرتْ قليلاً، ثم قالت وهي تقلِبُ شفتيْها:

- لا أحدَ! ليس هناك ذَكَرٌ أصلاً.

- بالضبط، لنأتِ إلى قصة يوسف الآن.

- انتظرْ قليلاً.

نادتْ على النادل، وحين جاء وضعتْ فنجان القهوة في الصينية ومعه رُبْعُ ثَمَنِ القهوة، قائلةً:

- أكثر مِن نصف فنجاني غبارُ قهوةٍ! الخدمة ليست ممتازةً، أريد فنجان قهوةٍ حقيقيًّا.

نظر النادلُ في الفنجان، وعيونُه تحمِلُ علاماتِ التأكيد على كلامِها:

- أعتذرُ لكِ، سأُحضِر لكِ فنجانًا آخرَ، لكنْ هذه النقود؟

- لا تخفْ، هي ليستْ ثمن الفنجان الجديد، استمتعتُ برائحة القهوة،

هذه النقود ثمن القهوة على الرِّيحة فقط، للمتعة ثمنٌ أيضًا!

غادر النادل، فالتفتَتْ إليه تستحثُّه ليُكمِل.

- أنتِ قويةٌ! هل غادرك ضعفُكِ أم طال شَعْرُ شمشون فيكِ؟

- كان المفروض حسبَ البرمجة المُسبَقة في خلايا دماغي غيرِ المُعترفِ بها عندكَ لكوْنِها مُنتجٌ شرقيٌّ أنْ أصمت! لمْ أصمت، لا تسألْ عن السبب. حينما أدركُه سأُخبِرُك. لنجعلِ الأمر بلا سببٍ. آه، ماذا كنتَ تقول؟

مرَّر عينيْه على ملامح وجهها مُتعجِّبًا، فأصابها ارتباكُ الصورةِ في حضرة الأصل، فأكمل:

- في قصة يوسف، حين تواجد الذكر والأنثى، مَن كان المتَّهم الأول؟

- الذَّكَر!

صمتتْ قليلاً لتُكمِل:

- لكنَّ السبب في ذلك أنَّ الأنثى اتَّهمتْه.

- ولماذا صدَّقوها؟

- لأنَّها سيدة البيت!

- ولماذا لا يكون السبب أنَّ الذكر هو الذي يراود الأنثى عن نفسها في الأصل؟

عقدتْ حاجبيْها، وقالت:

- لمْ أفهم، إلامَ تريد أنْ تَصِلَ بكلامكَ؟

قالتْها بانزعاجِ الفُضول، بعدما علا ضجيج الأسئلة برأسها كسِكَّة حديدٍ يمرُّ به قطارٌ.

- الحقيقة يا صديقتي، والمنطقُ أنَّ الرَّجُلَ هو المُتَّهم في قضايا الشرف، في حال وجوده، لكنْ مع غيابه فالمرأة تصبح هي المُتَّهمة الوحيدة. الرجل يتحمَّل المسؤولية أكثر مِن المرأة في ذلك. في المسرحية حينما غاب الذَّكَر ولم تعترف به، كانت متهمةً، وحينما ظهر حتى لو لم يعترفْ فهو الفاعلُ الأوُل والحقيقيُّ وهو الذي يسعى دومًا نحو الأنثى حسب قوانين الطبيعة السليمة.

- هل يعني هذا أنَّ المرأة -مِن وجهة نظرك- لا يجوز لها أنْ تُبادِر في

الحب؟!

حكَّ رقبته مِن الخلف وهو يقول:

- كلّا، في الحب المرأة حتى لو بـادرتْ فهي تلمِّح ولا تصرِّح، ولو صرَّحتْ فالأمر رهنٌ بنوايا الرجل وامتداد بصره لعُمقِ العلاقة وشكلِها. لكنَّ المسرحية تتحدَّث عن قضايا الشرف وليس الحبّ، نادرًا ما نسمع باغتصاب الأنثى للرجل، وعادةً ما يكون عمق العلاقة مرتبطًا بتصوُّر الذكر وليس الأنثى.

- هل تقصد أنَّها مجرَّدُ تابعٍ مطيعٍ؟!

- ليس بالضبط، هي سهلة الاقتناع باسْمِ الحبّ، وكريمةٌ جدًا في شؤون الجسد لو توافرت الثقة.

قالتْ مُعترِضةً:

- لكنْ في قصة يوسف، هي راودتْه عن نفسه.

- لكنْ عليه وقع الجُرْم.

- لأنَّها السيدة.

- بل لأنَّه الذَّكَر، تصديقُ أنَّ الذكر هو المتَّهم أقرب للنفس مِن تصديق أنَّ الأنثى هي الفاعلة.

في تلك الأثناء كانتْ تركِّزُ بصرها في البعيد تراقب القادمة إليها تلوِّح لها، ابتسمتْ لها بيدِها مُرحِّبةً أنْ اقتربي.

*****

ذهب قلبُها مشوارًا وعاد مِن شدَّةِ الضرْبة التي تلقَّتْها على ظَهْرِها وأختُها تُربِّتُ عليه، بما أثار حُنْقَها مِنها، فكثيرًا ما حذَّرتْها ألّا تفعل خاصَّةً أمام الناس.

كانتْ قد سألتها أختها مرةً:

- لماذا يستفزُّكِ أنْ أربِّتَ على ظَهْرِك أمام الناس أكثر؟

- تربِّتين أم تَخبِطين؟

- بغضِّ النظر عن المُسمَّيات التي تختلف باختلاف وجهات النظر... أو النوايا! أجيبي عن سؤالي.

- لأنَّ الأمر محرجٌ جدًا ومؤلمٌ جدًا.

- أو لأنك تضطرّين للابتسام وكَبْتِ ضيقك أمام الناس، أمّا في البيت أو وحدنا، فأنتِ تنفجرين في وجهي غضبًا. أليس هذا نفاقًا؟

«لستُ منافقةً، كلُّ ما في الأمر أنني أراعي مشاعرك ولا أحبُّ إحراجك أمام الناس.» قالت لنفسها ثم قالتْ لها:

- كلّا، ليس نفاقًا. أنا فقط لا أحبُّ إحراجك أمام...

قالت بكبرياءٍ، لكنّ نظرةَ صمتٍ مُتحدِّيةٍ مِن أختها الجالسة على يَدِ الأريكة بجانبها قاطعتْها.

ثم قالتْ:

- لا تُحبِّين إحراجي، أم لا تحبِّين الحَرَج الذي تَقَعين فيه؟ أم تَغْضبين لأنَّك تَعْجَزين عن التعبير عن غضبك أمام الناس؟

«لماذا أشعر بالحرج؟ لعلَّني أشعر بالحرج، لماذا أغضب؟ لعلَّ الأمر متعلقٌ بفشلي عن فهم الناس في هذا المجتمع الشرقيّ البعيد كلَّ البُعد عن تربيتي الإنجليزية الصارمة؟» قالتْ لنفسها، ثم نظرت إلى أختها سائلةً:

- يبدو أنني أتضايقُ لأنني أشعر بالارتباك أمام ردَّة فِعْل الناس هنا.

- هذا نوعٌ مِن النفاق أيضًا.

- الحديث معك عبثٌ!

حينما تذكَّرتْ هذا الحديث في المقهى بعد تلك الخبطة على ظَهْرِها، شعرتْ ببعض الهدوء النفسيّ، وزال نداءُ الحَرَج للدم في وجهها، ابتسمتْ لأختها، وهي تعرِّفُها بصديقها الجالس مُقابلها على الطاولة:

- خضر، هذه أختي ليلى.

- ليلى، خضر المؤلف المسرحيّ العبقريّ.

نظرتْ إليها ليلى بكبرياءٍ أصابه البلَلُ، كحذاءٍ مثقوبٍ تحت المطر.

جلستْ على المقعد وهي تصافح خضر بقوّةٍ، مُعرِّفةً بنفسها:

- اسمي عليٌّ.

ثم نظرتْ إلى بلقيس مُكْمِلةً:

- لكنَّ أختي تحبُّ المُزاح المغمَّس بالفوضى.

نظر إليها بفضولٍ كبيرٍ، وقال:

- أيُّ فوضى تقصدين، عفوًا تقصدُ. لقد تداخَلَ الأمر عندي، أشابٌّ أنتَ أم فتاةٌ؟ هي فعلاً فوضى في الشُّعور، مظهرُكَ هو، وصوتُكِ هي، وقد تُهْتُ في الضمائر!

ثم أردف بابتسامةٍ، وقد تجاوز فضوله:

- يبدو أنَّكما توأمٌ بكلِّ حالٍ.

قالتْ بجفافٍ:

- عامِلْني كما أحبُّ ونادِني بما أردُّ به عليكَ، بكلِّ حالٍ إنْ تشابَكَ ضمير «هو» و«هي» فضميرُ «أنا» واضحٌ لا لَبْسَ فيه، وأنا أقول لكَ اسمي عليٌّ،

تعامَلْ معي على هذا الأساس.

نظرتْ بلقيس نحو أختها باستهجانٍ لهذا الأسلوب الجافِّ كجفافِ جدارٍ مِن النوافذ، فقالتْ تُلطِّفُ الأجواء وتُشرِعُ نافذةً للحِوار:

- اسمي عليٌّ، أمّا صوتي فعندي مشكلةٌ فيه، عمليةٌ واحدةٌ ويتوقَّف كلُّ هذا، ونحن فعلاً توأمٌ.

ثم أحَّ بشدةٍ مُحاوِلاً جَرْحَ صوتِه بالخشونة، وأشعل سيجارةً على عَجَلٍ، بينما يتفحَّصُ خضر وجه عليٍّ وجسدَه، فهتف عقلُه:

«حالةٌ نادرةٌ جدًا، تستحقُّ المتابعة والتأمُّل، أظنُّني أحتاج للتقرُّب أكثر لأفهم أبعاد القضية.»

قال خضر مخاطبًا عليًا:

- هل شاهدتَ المسرحية يا عليّ؟

- نعم، وقد راقتْ لي. أظنُّك تُجيدُ التلاعُب بالكلمات، والتأثير في وعْيِ الناس جيدًا، لديكَ رسالةٌ تُوصِلُها وهذا جميلٌ، لكنَّكَ تُحاوِل أنْ تَصِلَ إلى

شيءٍ مُبهمٍ لم أدركْه بعدُ. أمّا أداءُ بلقيس فهو مثاليٌّ وشديدُ الإيمان بكَ، هي رسولٌ جيدٌ لكلماتكَ وأفكاركَ، تؤدِّي دورَها ببراعةٍ وإتقانٍ.

هزَّ خضر رأسه مُعجبًا ومُتعجِّبًا، ثم قال:

- أنتَ لمَّاحٌ كخطواتِ العُميان.

سكتَ الجميع، كان كلٌّ مِنهم يخوض عالمه الخاصَّ ويَغرَق بين تيارات وعيه وأمواج لاوعْيِه المُفاجِئة التي تسحبُه نحو القاع؛ كانتْ بلقيس مشغولةً بنظرات خضر المحدِّقة في ليلى كنقَّاشٍ يُتابِع أدقَّ التفاصيل، صوتٌ داخليٌّ همس لها: «ما هذه النظرات؟ أهو معجبٌ بأختي؟» التهمتْها الحيرة كما يلتهم الليل ملامح الأشياء، قالت لنفسها: «يبدو أنَّ خضر يقرأ ليلى، أنا أعرف هذه النظرات، كلا! إنَّه معجبٌ بها، شيءٌ ما يُخبِرُني أنّه مُعجبٌ بها.»

وكان عليٌّ في تلك اللحظات مُتوحِّدٌ مع حُزْنِه كتوحُّدِ المرض مع الجسد، هتف به هاجسٌ ومَضَ كالبرق: «أنتَ ذَكَرٌ خَذَلَه جسده.» ثم قال مُحدِّثًا نفسه: «بعض الإناث أكثرُ خشونةً مِن الذكور، وبعض الذكور أقلُّ صرامةً

مِن الإناث، والمجتمع يتقبَّل ذلك، لو تقبَّلني المجتمع كما أنا لَما بَالَيْتُ، لا يهمُّني شكلُ جسدي المُعانِد، ولا صوتي الكافر بي كما أنا، أنا هو، وليس هي.»

وكان خضر قد راوغه عن وعيه هاجسٌ يقول: «عليٌّ هذا أو ليلى، خطرٌ على نواياك.» لكنَّه ابتسم مُحدِّثًا نفسه: «يا لهذه الفكرة الحمقاء! لا أحد يمكنه اختراق ملفاتي الفكريّة السرّيّة، ولو اكتشفها أحدٌ فلن يملك معها صدًا أو حيلةً للهُروب، كلُّنا أبناء التأثُّر والتأثير، كلُّنا أسرى الخواطر اللاواعية في سراديب عقولنا.»

التفتَ إلى بلقيس التي تحدِّق فيه بنظرةِ قلقٍ حزينةٍ، أدرك سريعًا أنها تُخفي غَيْرةً أنثويةً اعترتْها، فابتسم لها ولإدراكه وهو يهزُّ رأسه بحركةٍ مُتسائلةٍ بريئةِ المظهر، فسحبتْ نظراتها كما مُقاتِلٌ مِن معركةٍ خاسرةٍ، فابتسم ثانيةً لإدراكه قوّة تأثيره عليها، وقال:

- عليّ، ما رأيكَ في مفهوم الشرف، بعدما شاهدتَ المسرحية؟

انتشل السؤال عليًا مِن بئر أفكاره، فقال بعدَ تفكيرٍ قليلٍ:

- الشرف هو أنْ تَصْدُقَ مع نفسك لا أنْ تُنافِق غيرك في مفهوم الشرف، الشرف برأيي أنْ يصدِّق قولُك فعلَك، أو ألّا تخدعك نفسكَ فتخدع غيرك.

- أتقصد أنَّ الشرف يعني: أنْ تكون أنتَ كما أنتَ لا كما يريده الآخرون؟

- الشرف هو أنْ أكون أنا كما هي الأنا الحقيقية، أنْ تكون شريفًا مع نفسك قبل أنْ تكون شريفًا مع الآخرين.

هزَّ خضر رأسه مُثْنِيًا على الكلام، ثم سأل:

- ماذا عن شرف الجسد والحبّ؟

- الشرف لا يرتبط بالجسد وحده، ولا الحبّ كذلك؛ الفكرة هي أنّ الحبَّ والشرف لا ينفصلان كالماء والوعاء، لن تحصُل على الماء ما لم تجدْ له الوعاء المناسب الذي يحتويه، الماء هو الحبّ، والوعاء هو الشرف، ما لم تكن شريفًا سيتسرَّب الحبُّ مِن بين يديْك، لذا فإنَّ أيَّ اختراقٍ للأعماق يُعَدُّ استباحةً للشرف أو غوصًا نحو الظَّفَر بالحبِّ، سواءٌ أعماق الجسد أو أعماق الفِكْر، أو أعماق الروح، أو حتى أعماق الأسرار.

نظرتْ بلقيس إلى خضر وهو يتابع كلام ليلى، ليلى التي لا تعترف بلقيس

بأنَّها عليٌّ، همسَ لها خاطِرٌ خفيٌّ: «حتى إنْ كان خضر مُعجبًا بليلى، فهي ترى نفسها شابًا، وترفض إقامة علاقاتٍ مع الذكور، قريبًا سيُدرِك خضر هذا الأمر، فهو واعٍ كفايةً ليفهم رغبات جسد أختي.»

تنهَّدتْ بارتياحٍ مفاجئٍ، وشعرتْ بصَخَبِ الحبِّ، حين هدأ ضجيج الغَيْرة في قلبها، رغم أنَّها لم تدركْ سبب انزعاجها ولا سبب هدوئها المفاجئ، فتلك الخواطر الماكرة عبرتْ ذهنها مِن الباب الخلفيِّ كلِصٍّ يُتقِنُ سرقة الابتسامات والتعاطُف، في ثوبِ متسوِّلٍ.

*****

دفعتْ بلقيس باب غرفتها بغضبٍ أصمَّ، وهي تُلقِي بحقيبتها على السرير، قبل أنْ تُواجِه توأمها قائلةً:

- أنتِ لا تتوقَّفين عن إحراجي أمام الناس، هل تتعمَّدين الظهور لإغاظتي؟

جاءها الردُّ هادئًا مُستفزًا مُتحدِّيًا:

- وأنتِ لا تتوقَّفين عن إحراجي أمام الناس حين تناديننني بذلك الاسم السخيف، وتعاملينني كأنني أنتِ الأخرى، ليس معنى أنّي توأمُكِ أنْ تتمسَّكي بأنوثتك فيَّ.

- يا إلهي!

ثم قامتْ سريعًا مِن مكانِها، وسحبتْ سريعًا عن رأس دميةٍ شعرًا مُستعارًا، ألْقَتْهُ على رأس توأمها، وأشارتْ إلى المرآة صارخةً:

- انظري إلى نفسك! الشيءُ الوحيد الذي يُشبِه الذكور فيكِ هو شَعْرُكِ القصير، سوى ذلك أين هي ملامح الذكورة الهشَّة فيكِ؟ كُفّي عن خداع نفسكِ.

لم يَرُقِ الكلامُ للتوأم:

- هذا هو الشَّعْرُ المُستعار، لا يهمُّني ما تقولينه، الذُّكورة ليست جسدًا ولا شكلاً، الذكورة رغبةٌ وإحساسٌ. لا أشعر بنفسي أنثى، وأنتِ أحيانًا تفرحين بشُعوري هذا، خاصةً عندما تكادين تشعُرين بغَيْرةٍ على حبيبك خضر منّي.

فتحتْ بلقيس عينيْها دهشةً، ثم ابتسمت باستنكارٍ، حاولتْ أنْ تُجيب لكنَّ مُحاوَلتَها كانتْ أقسى مِن مُحاولةِ انتحارٍ فاشلةٍ، فلزمتِ الصمت، وهواجسٌ مُخيفةٌ تُهاجِمُها مِن بوابة الوعي الخلفيّة، عُبورًا إلى منطقةٍ أعمقَ في عقلها: «هل أغار حقًا مِنها على خضر؟ وهل يُفرِحُني أنَّها أنثى تلبَّسَها شُعور الذكر لأتخلَّص مِن غَيْرَتي؟ هل أغار حقًا مِن توأمي على حبيبي؟»

بدأتْ بلقيس بالتفكير الواعِي لطُرُقاتِ الأفكارِ الخفيّة: «يجب عليَّ أنْ أكون أكثر حذرًا في تقييم الأمور، هذه الفوضى لنْ تُجْدِيَ في شيءٍ، يبدو أنَّني فعلاً أغار على خضر مِن أختي، كلّا كلّا، لا يمكن، لستُ بالتي تغار مِن توأمِها، كُلُّ ما في الأمر أنّي لا أعرف كيف أتعامل مع الموْقِف، هل عليَّ مُطاوعة توأمي أمام الناس بأنَّه ذَكَرٌ لتجنُّبِ الحَرَج؟ ولِمَ لا؟ هذا يُريحُني بكُلِّ حالٍ ويُجنِّبُني كُلَّ ذلك العبث.»

التفتَتْ إلى توأمها، فلَمْ تَجِدْهُ، نادتْ عليه مِن خلف ستارةٍ مُمتدّةٍ في منتصف الغرفة لتصنع حاجزًا بين السريريْن:

- عليٌّ، هل تسمعني؟

- أوه! وأخيرًا، هذه أول مرةٍ تناديني بهذا الاسم!

ثم نهض قفزًا مِن مكانه، ساحبًا السِّتارة بحماسٍ، ووجهُه مُشرقٌ ليقول لها:

- ماذا تريد أختي الصغيرة؟

- كُفَّ عن الحماقات، ليس هذه أيضًا، أنا أكبر مِنكَ فقد وُلِدْتُ قبلَك بثلاثِ ثوانٍ.

- حسنًا حسنًا، وأنا، يتوجَّبُ عليَّ السمع والطاعة لأختي الكبرى.

- دَعْكَ مِن هذا، هناك موضوعٌ أحبُّ أنْ أحدِّثكَ فيه.

جلس بجانبِها على السرير بصمتٍ، يحثُّها بمَلامِحِه على الكلام.

*****

« ٢ »

صدمةٌ كُبرى أنْ تظنَّ نفسَك تُمسِكُ بخيوط اللُّعبة،
لتكتشف أنَّكَ لستَ سوى حلقةِ وصلٍ بين اللاعب
الحقيقيِّ والمُشاهدين، تُحرِّكُ الخيوط بأمْره،
وتُريهِم ما يَرسُمُه.

المُواجهة الداخليّة بين المرء ونفسه،

والمواجهة الخارجيّة بين الفرْد وغيره هي ما ستتكشَّفُ عنه السطور القادمة، متى؟ كيف؟ لماذا؟ هل مررتَ عزيزي القارئ بمثل تلك التجربة مرةً ومَرَّتْ وأنتَ لا تدري شيئًا؟ دعْنَا نرى.

كان عليٌّ يستَمِع باهتمامٍ بالغٍ لشكوى بلقيس ومخاوِفِها، لم يكنْ يَستَمِعُ في الحقيقة إلى الكلمات، بقَدْرِ استماعه إلى ما خلْفَ الكلمات مِن مشاعرَ تبثُّها، كان يريد اختراقَ أعماقِ أخته ليفهمَها أكثر، فأحيانًا وأنتَ تتحدَّثُ بِتَداعٍ حُرٍّ، دون أيّة مقاطعةٍ ستُفاجأ بالكثير حول نفسك وأفكارك لو كنتُ واعيًا كفايةً ومُستمعًا جيدًا لنفسك، ولأنَّ بلقيس لازالت تفتقرُ إلى الوعي الكافي أو التجربة الحَقّة لسماع صوتها الداخليّ، أو مواجهة نفسِها كما ينبغي، كان على عليٍّ أنْ يقوم بهذا الدور بدلاً مِنها.

كان تبثُّ أخاها شكواها مِن مخاوِفِها حول قلقِها عليه، واستيائها للصدام العنيف المتواصل بينه وبين أخيها الأكبر معاوية، كانت تشكو له مِن سوء

فهْمِها لهذا المجتمع الشرقيّ، مُقارنةً بحياتها في بريطانيا مع والدتهما قبل أنْ تُتَوفّى وينقلهما أبوهما المريض إلى هنا، ليصطدما بمعاوية الأخ غير الشقيق لهما، الذي يرفض تمامًا طريقتهما في الحياة، ويريد مِنهُما بإلحاحٍ أنْ يُصبِحا قطعةً في فسيفساء المجتمع الذي يعيشان فيه مُتناسِيان تمامًا كلَّ ما يتعلَّق بحياتهما السابقة.

سكتتْ قليلاً وهي تلتقط أنفاسها، لكنَّ الأوان كان قد فات، فجلسة تحضير الأفكار المختبئة قد بدأتْ بالفعل، والثِّقَل في قلبها يزداد، وهي تريد أنْ ترتاح، كان صمتُ عليٍّ الكاملُ يستفزُّها أكثر فأكثر للبوْح، حتى تَناسَتْ وجوده تمامًا، وعلا صوتها قليلاً مُتهدِّجًا مُلتاعًا حائرًا، وبدأتْ أصابعها بالارتجاف فصارتْ تبحث عن شيءٍ تَعْبَثُ به فاصطدمت بقلادتها، وأخذتْ تلفُّها لاشعوريًا بحركةٍ دائريّةٍ مُتواصِلةٍ، لتخفِّف مِن حدَّة التوتُّر الداخليّ في نفسها، ثم بدأ الهذيان.

صارحتْ توأمها أنَّها تحسده على جرأته وقوَّته مقابل ضعفها الأنثويّ، وتحدَّثتْ عن مخاوفها مِن خضر الذي لا تفهمه جيدًا، أيحبُّها؟ أم

يستغلُّها؟ فهو حينًا عاشقٌ مِن الطراز الأول، وحينًا آخر باردٌ جدًا، لا يبالي بشيءٍ، عنيدٌ في تحقيق أهدافه، كما أنَّه يُصرُّ على أنَّ نجاحها صدًى لإبداعه، لماذا يصرُّ على أنَّ أيَّ إبداعٍ للمرأة مُجرد تقليدٍ أو تأثُّرٌ بنجاح الرجل؟ كما أنها تشعر أنه يُخفِي عنها سرًا كبيرًا لا يبوح به. سئمتْ مِن طرح الأسئلة عليه، وإقناع نفسها بإجاباته، كما أنَّها تخاف ألّا يشعر بأنَّها لا تثقُ به، كانت الحيرة تأكل عقلها، كما يأكل الثوبُ الفضفاض أسرار الجسد.

سكتتْ كلماتُها لتنطقَ عيناها بدموعٍ حارَّةٍ توَّجتْ مسيرة البوح المؤلم الصادم لها، هدأتْ قليلاً وهي تشعر بدهشةٍ بالغةٍ، ابتسمت قليلاً ببلاهةٍ، كادتْ تُنْكِرُ كُلَّ ما قالته، تريد أنْ تَنْسِبَهُ لهلوساتِ الجسد المُرهق والأداء المسرحيّ الذي يتلبَّسُها في صَحْوِها ونومِها، قالت ببلادةٍ:

- أقول أنا، لكنني أعرف أنَّ آخر يتحدَّث الآن لستُ مقتنعةً بما يقوله.

أثْنَى توأمها على عبارتها الأخيرة، ثم أردف قائلاً:

- ركِّزي على ما هو جيدٌ لك يا أختي العزيزة، لا تُركِّزي على ما يريده

خضر منك، الذي ألاحظه أنّه يسيطر تمامًا على لاوعيك ويُحيلُك إلى نسخةٍ طبقِ الأصل مِن تصوُّره للأنثى، أنتِ تظنّين أنك حرةٌ ومتمرِّدةٌ، لكنكِ لستِ أكثر مِن دُميةٍ تتحرَّك وفق رغباته، إنَّه يبثُّك أفكاره ليُريح نفسه في التعامل معكِ، يجعلك فقط فتاةً أخرى كما يتصوَّر الأنثى الكاملة، عليه أنْ يَقْبَلَكِ كما أنتِ.

لم تفهم بلقيس شيئًا مِمّا قيل لها، فهي لازالت تظنُّ نفسها بخيرٍ، وتظنُّ أنّ ما يجري ليس أكثر مِن توافُقٍ فكريٍّ بينها وبين خضر، أو أنَّ خضر يُساعِدُها لاكتشاف نفسها أكثر.

لكنَّ توأمها أضاف مُوضِّحًا أكثر:

- الفرقُ بين الرجل أو الإنسان الذي يريد لكِ الأفضل، ويساعدكِ لاكتشاف نفسكِ، أنَّه يُخبرُكِ بوضوحٍ وصراحةٍ أنَّه يريد منك أمورًا مُعيَّنةً ويناقشكِ فيها، أنه يتلمَّس نقاط ضعفك ليساعدكِ على التخلُّص مِنها، لكنْ حَسْبَما أسمع مِن كلامك وأرى مِن خضر، أنتِ لستِ أكثر مِن مُتحوِّلةٍ، حتى الجميلِ فيكِ، قد يغدو قبيحًا ما لم يَرُقْ لخضر>

سأعطيكِ مثالاً: جميلٌ مِن خضر أنْ يَكشِفَ لكِ مواطن ضعفك ويُخرِج أفضل ما عندكِ حين يواجهكِ بكُلِّ ذلك، لكنْ ليس جميلاً ولا منطقيًا أنْ يبثَّك أفكاره عن تحرُّر الأنثى ليصل في النهاية إلى مآربه الشخصية، ففرقٌ بين أنْ يحدِّثك عن الإلحاد مثلاً، ليَصِلَ مِن خلاله إلى جسدك، وعقلك، وأنْ يقول لك صراحةً: أنا أحبُّكِ وأريدكِ لي وحدي، أنا ملحدٌ لكنَّني لا أريدك ولا أجبرك أنْ تعتنقي مَذهبي.

فرقٌ شاسعٌ بين أنْ يُخضِعكِ لمَذْهَبِه وأفكاره ليصل إلى مُبتغاه، وأنْ يُصارِحكِ بمَذْهَبِه ليبرِّرَ أفكاره، ويترك لكِ حريَّة الاختيار.

كانتْ الكلماتُ تتسرَّبُ إلى أعماق بلقيس كما تتخبَّط اللذة المُبهمَة للمرَّة الأولى في أجساد المراهقين؛ تستمتعُ بها ولا تفهَمُها، وتشعر بأَثَرِها ولا تُدْرِك ملامحها، شعرتْ براحةٍ نفسيّةٍ عميقةٍ، فقالتْ:

- الموضوع أشبه بدوران الأرض والشمس؛ نظنُّ ظاهريًا أنّ الشمس هي التي تدور في حين أننا نحن الذين ندور، لعلَّ الموقف معكوسٌ فنظنُّ أننا بخيرٍ نتحرَّك وندور ولكننا في الحقيقة جامدون ثابتون، أو أنّ

الموقف فعلاً أنَّنا نظنُّ أننا ثابتون وبخيرٍ في حين أننا نتغير ولا نشعر بذلك.

*****

جلس عليٌّ **(لنتفقْ على مَنْحِه هذا الاسم طالما نتحدَّث عنه حتى لا يغضب مِنّا، كما أنَّه مِن اللائق أنْ تُنادِيَ الإنسان بِما يحبُّ لا بما تحبُّ، بغضِّ النظر عن مدى قناعتك أو ميلك للاسم ومدلولاته)**.

إذنْ، جلس عليٌّ وقد رفع ساقًا على أخرى كما يجلس الشباب في عنفوان شُعورِهم بالرجولة، وحذاؤه يهتزُّ مُحتكًّا بالمكتب، الجالس عليه معاوية في الشركة، حينما ذهب لزيارته.

كان عليٌّ غارقًا في مقعده يحدِّق في الفراغ بطريقةٍ استفزازيةٍ مُتعمَّدةٍ بعيدًا عن معاوية الذي سيكلِّمه بلا شكٍّ بغضبٍ واضحٍ.

لم يرغب عليٌّ بهذا اللقاء الغاضبٌ الثائرٌ محكومُ النتائج ، لأنَّه يعرِفُ أنَّه

سيكون أشبه بلقاءاتِ البرق والرعد في غيمةٍ، لن يَنتُج عنه إلَّا انهمارِ التُّهَمِ المُتبادَلَةِ بين الطرفيْن، دون أيِّ معنًى حقيقيٍّ للنقاش، كلاهما مُصِرٌّ على رأيه متمسكٌ بموقِفِه واثقٌ مِن وجهة نظرِه، أحدُهما كالبرق لامعُ الخاطرِ واضحُ الموقفِ كارثيُّ الإصابةِ، والثاني كالرعد كثيرُ الضجيجِ مُزمجِرُ الغضبِ محكومٌ بردَّةِ الفعل تجاه الأول.

لكنَّ معاوية، ويا للعَجَب! كان هذه المرَّة هادئًا جدًا، كشمسٍ أشرقتْ فطردتْ كُلَّ البُروقِ الزائفة بعيدًا بلمْحِ البصر، كان صوتُه الهادئ الوَدُود مُقلقًا لعليٍّ، حينما التفتَ عليٌّ إليه وهو يسأله بابتسامةٍ واسعةٍ عن صحَّته، رأى في عينيْه صفاءً مُخيفًا، سبَّبَ له توتُّرًا، فسهْلٌ جدًا أنْ تتسلَّح بالهجوم في وجه الغاضبين، سهْلٌ جدًا أنْ تُواجِه النوايا الواضحة، لكنْ أنْ يُقحِمَك مَن تراه عدوَّك في مجاملةٍ لطيفةٍ يُحرِجُك بها أمام الجميع، مُتسلِّحًا بحُسْنِ النيّة وأنتَ على يقينٍ مِن فساد طَوِيَّتِه، فهذا مُربِكٌ جدًا.

لم يَجِدْ بُدًّا مِن صَدِّ هذه المناورة الدبلوماسية، فكَّر سريعًا لتحصين نفسه، فهمستْ له الهواجس: «كنْ كما تريدُ لا كما يريدُه لك الآخرون»،

فبادر قائلاً بسرعةٍ لمعاوية بإصرارٍ:

- أنا شخصٌ آخر الآن في هذه اللحظة، فكلِّمْني بما شئتَ سأتقبَّلُه، لكنَّ هذا لا يعني أنني سأقتنع به.

- لن أحدِّثكَ طويلاً، وسأحدِّثُكَ بصفتكِ عليٌّ وليس ليلى. هي فقط رسالةٌ قديمةٌ أَرْسَلَها لي والدُنا قبل وفاته، حينما كنتم في إنجلترا، أخبرني فيها بما لا تعرفُه عن نفسكَ أو عن الماضي، أريدكَ أنْ تطَّلِع عليها.

قلب شفتيْه بلامبالاةٍ، لكنَّ قلقًا داخليًا اعتراه، فالمرءُ دومًا يخاف مِن المجهول المفاجئ، هذا الهدوء مِن معاوية، وهذه الرسالة مِن والده، تقولُ الكثير بلا شكٍّ، هل هناك أسرارٌ لا يعرفُها؟ وما علاقة كُلِّ ذلك بإثبات هويَّته كعليٍّ وليس كليلى؟ راوده هاجسٌ سريعٌ: «لا تخفْ! حتى لو أجمع الكُلُّ أنني أنثى، فأنا الوحيد الذي ينقلبُ نظرُه نحو الداخل لأراني بانكشافٍ كاملٍ، وأعرف ما أريده تمامًا، أنا الوحيد الذي أشعر برغباتي ومخاوفي. الوحيد القادر على تلمُّس الداخل هو أنا، وليس أنتَ أو هو، وليس هناك إلا أنا واحدةٌ لكُلِّ شخصٍ فينا.»

كان أخوه كأنَّه يتنصَّتُ على هواجسه حين قال له:

- لا تتسرَّعْ وتخلَّصْ مِن عنادك ومخاوفك قبل أنْ تقرأ رسالة أبينا، وهناك قصةٌ أريد أنْ أذكِّركَ بها، وأخرجْ مَعَك منها بعِبْرَةٍ تُفيدُك في حياتك.

أشاح عليٌّ بيده، كأنَّه يَنْفُضُ الكلام حوله كما ننفُضُ الغبار الصاعد مِن وسادةٍ قديمةٍ، وفتح فمه، كاد ينطق، لكنَّ معاوية أشار له بيده أنْ يتمهَّل قليلاً، وقال له:

- ستقول ما شئتَ أنتَ، لكنْ وقتما شئتُ أنا. لا تقاطِعْني لو سمحتَ، وأَعِدُكَ أنْ تكون آخر مرةٍ أحدِّثُك فيها بهذا الشأن، ولن...

لكنَّ عليًا المُعانِد بإصرارٍ، كورقةٍ تحترق في مهبِّ الريح، قبل أنْ يُدرِكَها أحدٌ لإنقاذها، قاطعه قائلاً:

- ليس المهمُّ أنْ تحدِّثني أولَ أو آخرَ مرةٍ، عليكَ أنْ تُحدِّثْ نفسكَ بشأن عنادك وتكبُّرك على رغباتي، عليك أنْ تراني كما أنا، لا كما تريد أنتَ. لكنني أعرف أنك لا تعترف بها، وكلمة السرِّ في كُلِّ ذلك: الميراث!

وقف معاوية سريعًا وضرب بكفيْه على المكتب، كان منتفخًا بالغضب

كانتفاخ بطنه بالغازات المؤلمة التي تقضُّ راحة أيّامه، مِن فَرْطِ تناوُلِه للويسكي مع الطعام. نظر إلى عليٍّ ثم مدَّ بصره إلى الجدار، تذكَّر أنَّه يتوقَّع مثل هذا الاستفزاز والعِناد، وأنَّ هدفه إيصال رسالته وليس النقاش أو الانفعال، أخذ نفسًا عميقًا، وأعاد النظر إلى عليٍّ، سرقَ ابتسامةً صادقةً وهو يَستدعي موقفًا مُضحكًا حصل معه البارحة حينما زاره صديقه وابنه الصغير وقذف في وجهه سؤالاً رهيبًا لم يتوقَّعْه ولم يعرفْ كيف يردُّ عليه، سأله الصغير بكُلِّ براءةٍ:

- مَن أنتَ؟

- صديقُ والدِكَ.

- قبل أنْ تكون صديق والدي، ماذا كنتَ؟ مَن أنتَ؟

يتذكَّر كيف أصابه ذهولُ العالِمِ بجهلِه أمام الجاهل بمعرفته، ثم انفجر ضاحكًا مِن السؤال، وها هو يعود للابتسام كُلَّما تذكَّر المشهد، وسط تعجُّبِ عليٍّ، كيف تغيَّرتْ ردَّة فعل أخيه سريعًا، واستطاع ضبط إيقاع مزاجه بما يشتهي، ما زال يشعر أنَّ خطرًا كبيرًا يُداهِمُه وراء هذا الصبر

المُروِّع غيرِ المُعتاد مِن أخيه، فلَمْ يملِكْ إلّا الصمت، كان معاوية يسترقُ النظر إلى انفعالات عليٍّ، وحين لاحظ صمتَ ملامِحِه والحيرةُ تَحُوم حول أطراف وجهه، جلس بهدوءٍ وأكمل قائلاً:

- أنتَ تعرفُ قصَّة النبيِّ موسى مع الخضر في القرآن، أليس كذلك؟

حدَّق فيه عليٌّ مصدومًا؛ معاوية يتحدَّثُ عن قصةٍ في القرآن؟! منذ متى؟ حاول اغتصابَ ابتسامةٍ ولو ساخرةً مِن شفتيْه لكنَّهُما كانتا عَصِيَّتان على الفتح، فزفر الهواء مِن أنفه، وأطبقَ يتأمَّل الأرض بصمتٍ، وهو يهزُّ رأسه مُتعجِّبًا، أكمل معاوية:

- في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام...

ثم صمتَ قليلاً، مُنتظرًا أنْ يردِّدَ أخوه السلام عليهما، لكنَّه امتنع، وبقي مُتعلِّقًا بصمْتِه وهو يبتلع ريقه، بين مستمعٍ فضوليٍّ لِمَا سيُقال، ومشاهدٍ حائرٍ لآخرِ فصلٍ في هذه المسرحية المُريبة، وجاهلٍ بالقصَّة نفسها أصلاً، يسأل نفسه عن العلاقة التي تجمع بين واقعه الذي يعيشه وقصةٍ عابرةٍ في زمنٍ غابرٍ، زفر أخوه بيأسٍ وأكمل:

- في قصة موسى مع الخضر...

ثم قطع كلامه ثانيةً، وقد بَدَا عليه أنَّه فَطِنَ إلى أمرٍ بالغِ الأهميّة، فاشرأَبَّتْ عنقُه وتغيَّرتْ نبرتُه وهو يسأل:

- هل تعرف قصة موسى مع الخضر؟!

هزَّ عليٌّ رأسه نافيًا، وهو لايزال يرسُم بعينيْه أشكالاً وهميّةً على أرضيّة المكتب مُتشاغِلاً بها عن النظر في وجه أخيه، وعن ملامح القلق في عقله العاري مِن أيِّ خطٍّ دفاعٍ الآن، فلوَّح معاوية بيده كأنَّه يمْسَحُ كلامًا وهميًا أمامه، ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال:

- لا وقتَ لديَّ لأخبرك بالقصة كُلِّها، لديَّ اجتماعٌ قريبًا، لكنني سأخبركَ بالعِبْرَة مِنها لتستفيد؛ حينما طلب موسى المعرفة المُطلَقة، حينما رغب بالمواجهة خَسِرَ كثيرًا، ليس لأنّه رغِبَ بأنْ يعرف، لكنَّ التوقيت السيِّئ يفسد كُلَّ شيءٍ دائمًا، رغبتُه بالمعرفة كان توقيتُها سيئًا، فرغم كِبَرِ سِنِّه وامتلاكه حكمة السنين، إلّا أنّ مُحاكَمَتَه كانت أقسى لقلَّة صبره، كما أنَّ معرفَتَه لم تنفعْه بشيءٍ، هناك أمورٌ لا نعرفها إلّا لنعرف أنَّنا جاهلون

أكثرَ فأكثرَ، فالمعرفة أحيانًا ليستْ سوى وسيلةٍ لتُدرِك أنّك جاهلٌ مهما عرفت، هذه هي الإضافة الوحيدة التي حصل عليها موسى في رحلته مع الخضر.

أمَّا عن علاقة القصة بك؛ فأنتَ تُطالِبُ وسريعًا باكتشاف حقيقة نفسك، أنتَ تبحثُ عن الإجاباتِ كُلِّها دفعةً واحدةً، وتزعم كما زعم موسى أنَّك على وعْيٍ كاملٍ بنفسك وبما حولك، متناسيًا أنَّ الوجود أوسع مِن مُحيطِكَ الذي تعيشُه وذاتك التي تتمحور حولها، وأنَّ بعض الأسئلة خطأٌ وبعضَ الإجابات أبعدُ مِمّا يصلُ له تفكيرك ويدركه وعيُك، عليك أنْ تنتظر قليلاً حتى...

- أُصبِحَ في عُمر موسى مثلاً؟

قاطعه عليٌّ بسخريةٍ، لكنَّ معاوية أصرَّ على إكمال كلامه لأنَّه بدأ يفقد صبره معه:

- حتى تتيقَّن مِمّا تُريدُه وما تريد أنْ تكون عليه، أمّا بالنسبة لحديثك عن الميراث، فسوف تَجِدُ في تلك الرسالة كُلَّ شيءٍ يتعلَّق به. والآن

يمكنكَ المغادرة مع الرسالة، أو البقاء وقراءتها هنا، أمّا أنا فيجب أنْ أغادر لحضور اجتماعٍ خارجيٍّ.

*****

«كُوني له أَمَةً يَكُنْ لكِ عَبْدًا»

رنَّتِ الكلمة في أُذُن بلقيس وهي تَضَعُ التّاج على رأسِها، في استعدادٍ أخيرٍ للعَرْضِ المسرحيّ. أَشْعَرَتْها الكلمة ببعضِ الحُزْنِ، أحقًا هي نصيحةُ أخيها معاوية الذهبيّة التي ستُعيد لها خضر كما كان؟

نظرتْ في المرآةِ الكبيرةِ بإعجابٍ، همستْ لها المرآةُ:

«لِمَ لا تكونين له مَلكةً لِيَكون لكِ أميرًا أُسطوريًا؟» لكنَّها لمْ تسمع الهمس بأُذُنها، كان خافتًا وضعيفًا لدرجةٍ لم تنتبِهْ إليه، أو لعلَّ صوتًا مِن خلف باب غرفة الملابس ينبِّهُها أنَّ دوْرَها في المسرحية قد حان. شعرتْ ببعضِ الانزعاج لشعورٍ غامضٍ أثار نفسَها ولمْ تعرفْ له تفسيرًا.

خرجتْ بسرعةٍ مِن غُرفتِها، تُلملِمُ أطراف ثوبها المَلكيِّ مُخلِّفةً وراءها ذلك الصوت يَنُوح بصمتٍ، صداه بين جدران روحها يتدحرج نحو العُمْقِ قبل أنْ يطفوَ ثانيةً أثناء دخولِها المسرح، لتأدية دور شجر الدُّر.

كان المشهد، تلك اللحظة التي تحوَّلتْ فيها مِن جاريةٍ أثيرةٍ إلى مَلِكةٍ مُسيطِرةٍ، كانت تؤدِّي الدوْر ببراعةٍ، رغم ذلك الشعور الكئيب داخلها.

عادت إلى مرآتها، نزعت التاج بعنفٍ، تحدِّق في نفسها في المرآة. ابتسمتْ لها المرآة وهمستْ: « كانتْ شجر الدُّر له أَمَةً فجعلَها ملكةً!، تبًا لبعض الرجال الذين...»

رنَّ جوّالها فوَجَمَتْ مرآتُها وتجمَّدتْ عيونُها كتمثال شمعٍ.

إنّه خضر، تردَّدتْ كثيرًا في الردِّ، لقد خَذَلها حين رفض حضور العرض المسرحيّ،

«كيف يفعل؟ إنه يعاقبني لأنني أرفض الخضوع لأفكاره المُنْقَلبة على ذاته هو شخصيًا، كيف يريد منّي أنْ انقلب معه عليه؟ لماذا عليَّ أنْ أكونَ له أَمَةً؟ لِمَ لا يريدني ملكةً!...»

صمتتْ فجأةً وهي تُراقِب حديث نفسِها، داهَمَها استغرابٌ:

«منذ متى وأنا أفكِّر بهذه الطريقة؟ أنا أعقل وأكثر توازنًا مِن هذه المقارنات التافهة؛ أَمَةٌ ومَلكةٌ! منذ متى كانت علاقة الرجل بالمرأة هكذا؟ إنّها علاقةُ تَكامُلٍ ومُشاركةٍ. لا تُفسِدي حياتك وعلاقةً ناجحةً بشعاراتٍ ضخمةٍ، لا تَدَعي تقمُّصَكِ للأدوار يسرقُكِ مِن واقعك.»

نَفَضَتْ عنها أفكارها التي أصبحتْ كَكُرة صوفٍ في كَفِّ قطٍّ عابثٍ، وهُرِعَتْ لتغيير ملابسها مِن أجل المشهد القادم في هذا العرض المسرحيّ.

عاود خضر الاتصال ببلقيس ثانيةً، مُتناسيًا أنّها في العرض المسرحيّ، لعله أراد أنْ يُخبِرَها بطريقةٍ ما أنّه لمْ يَنْسَها، وأنه ترك أثرًا على جوّالها، أراد مُعاوَدَة الكَرَّة للمرة الثالثة، لكنّه تذكَّر حديثًا دار بينهما مرةً:

- لماذا كنتَ تُرسِل لي رسائلكَ الواحدة تِلْوَ الأخرى على الجوّال، بما أنّك تعرف أنني في العرض المسرحيّ؟

- لتعرفي أنني أهتمُّ لأمرك، وأنَّكِ في ذاكرتي.

- هههههههههه، أتظنُّ أنني سأفهم الأمر بهذه الطريقة؟!

- كيف تفهمين الأمر إذن؟

- أنتَ تعلم جيدًا أنني مشغولةٌ أولاً، وانتظرتُ حضورك ثانيًا، فكيف سأفهم اتصالك؟

- لمْ أفهم!

- حسنًا، اتصالك يعني أنك تتذكر جيدًا الموعد ورغم ذلك تتصل دون أنْ تحضر، أو أنك نسيت الموعد تمامًا - وهذا الأرجح- وهذا أمرٌ مؤلمٌ لي أكثر.

قست ملامح وجهه، خاصّةً أنّه غاضبٌ منها حينما عاندته وأصرّتْ تمثيل مسرحيةٍ ليستْ من تأليفه، فهي لا تعرف نواياه الحقيقية ولا مشروعه السرّيّ.

حينما تذكَّر إصرارها، شعر برجفةِ توتُّرٍ في دمه، فأعاد الاتصال بها للمرة الثالثة متمنيًا أنْ تغضب! ثم رمى الجهاز بعيدًا، وشَبَكَ يديْه خلف رقبته ومطَّ ساقيْه المفتوحتيْن حتى كادتا تصطدمان بالطاولة أمامه ونظر في

سقف الغرفة ساهمًا.

تذكَّر حبيبته الغابرة، حينما رحلتْ على جناح نحلةٍ كلقاحٍ لا يَلْبَثُ، اتَّهمتْه بانعدام الإحساس وقتها، حاول أنْ يحضُنها ليُثبت لها شدّة حبّه، لكنّها صفعته بصدِّها، حاول فَهْمَ القضية، فانفجرتْ في وجهه، صَمَتَ صَمْتَ المُعتذرِ، لقد نسي سفرها أصلاً، حاول أنْ يشرح لها، هو لا يهتمُّ لمثل هذه الأمور، كما أنّه يثق بها ويعلم أنها لا تسافر وحدها، لكنها أصرَّت على أنه لا يراعي مشاعرها، إنه يتصنَّع الإحساس.

انفجر غضبًا ساعتها وتحوَّل إلى شريطٍ إذاعيٍّ يبثُّ على موجةٍ عاليةٍ آخر أخبار خسائر العدو في المعركة، غير أنه كان يتحدَّث عن خسائره هو، واحتماله هو، ذكَّرها بكُلِّ ما كان بينهما مُحاولاً دفْعَ التهمة عن نفسه، كان يراقبها في عِزِّ غضبه لعلها تهدأ ملامحها في لحظةٍ فيُصاب بالعدوى، لكنّ عيونها ظلَّت باردةً، وملامحها كتمثالِ شمعٍ لقائدٍ حربيٍّ يقاوم الابتسام في حربٍ داخليةٍ تخصُّه وحده.

ساعتها انفجر فيها قائلاً: «لِمَ لا تقولين إنني بلا إحساسٍ وأتصنَّعه فيما

يخصُّك وحدك فقط!»

التفتَتْ إليه مُستهجنةً ومستفهمةً، فقال لها:» أنا في نظرك بلا إحساسٍ لأني لا أحسُّ بكِ وحدكِ، هذا لا يعني أنني بلا إحساسٍ مطلقًا! كلُّ ما في الأمر أنني لا أراعي مشاعرك الشاذّة، أنني لا أتصرف بناءً على رغبتك، أنتِ تعيشين لنفسك فقط، وتقيِّمين الأمور بما يناسبُكِ ويتناسب مع رغباتك فقط، أنتِ تصنعين مقياسًا للأحاسيس وللإنسان الحسَّاس ثم لو لم تتَّفق مع مشاعرك الشخصية نَفَيْتِ عنه الصفة، فإذا لم أكن كما تريدين وكما تشتهين ووِفْقَ مزاجك، إنْ بَدَرَ منّي ما يغضبكِ، رميْتِني بتُهمة بلادة الإحساس، وأظنُّك أحقُّ منّي بها يا آنسة!»

يتذكَّر أنه قال كلماته هذه والذهول يُخربِش ملامحهما وكأنَّ ضبابًا كثيفًا انقشع بينهما فرأى كُلٌّ منهما الآخر عاريًا أمامه، بل رأى كُلٌّ منهما نفسه عاريًا تمامًا، وكانت النهاية.

توقَّف العتاب وهدأت الأنفاس وتصالحت صراعات الفكر، صَمَتا طويلاً كأنَّهما يتحدَّثان بلا صوتٍ وهما يحدِّقان في بعضهما كأنها أولُ مرةٍ،

كأنَّهما الآن فقط تعارفا غريبيْن وافترقا غريبيْن، ثم انسحبا بهدوءٍ ولم يرَ أيٌّ مِنهما الآخر بعدها مطلقًا. لقد افترقا بسلامٍ ووجعٍ، بعد جروحٍ في الذاكرة وخدوشٍ في عُذْريّة القلب لا تنمحي.

هل أصبحتُ بعدها بليدَ الإحساس حقًا؟ حتى إنني حين اتصلتُ ببلقيس كنتُ أتعمَّد الإيذاء، لكنّها لا...

استفاق مِن ذكرياته على صوتِ اتّصال سكايب عبر اللابتوب أمامه، حدَّق في المتصل، رتَّب هِندامه وأخفى كأس الويسكي وأسرع فشمَّر وغسل ساعديْه ووضع سجادة الصلاة ديكورًا خلفه، وقَبِل الاتصال، مُعتذرًا لمُخاطِبه بالتأخُّر لأنّه يستعدُّ لصلاة العشاء.

*****

جلس عليٌّ في غرفته، يَنْفُضُ الغُبار عن الرسالة التي يَفُضُّها وهو يَنْتَفِضُ مِن التوتُّر والإثارة، فهذه رسالةٌ قديمةٌ مِن والده الحبيب، وهي مُحمَّلةٌ بأسرارٍ، وهو قَلِقٌ منها.

«ولدي الغالي، فَرْحَتي الأولى وسَنَدي مِن الدنيا وسَنَد أختيْك، معاوية...»

أعادَ عليٌّ قراءة السطر ثانيةً والحيْرة قد تمكَّنتْ مِنه، كما يتمكَّنُ الأزرق مِن السماء، قال لنفسه: «الرسالة لمعاوية! ظننتُها لي» ثم هتف به هاجسٌ خَفِيٌّ: «حتى في آخر رسالةٍ له يَخُصُّ الذَّكَر دون الأنثى بها!»

أكمل القراءة وفي عينيْه غضبٌ لئيمٌ:

«أثقُ بكَ وبقدرتكَ على أنْ تكون مُنصِفًا، لكنني لا أستجدي إنصافكَ مع أختيْك، بقَدْر ما أستجدي رحمتك ورأفتك بهما، أنا مريضٌ والموت يأكلُني كما يأكل الصدأ بابًا قديمًا في بيتٍ مهجورٍ، لا وقتَ لأعود إلى البلاد، لكنّي أغريتُ أختيْك بالعودة طعمًا في المال والحياة الرَّغدة الهانِئة بقُربكَ وبِقُرْبِ ما سأحوِّلُه لكَ مِن أموالٍ...»

هتف عليٌّ لنفسه بغضبٍ جَسورٍ:

«حوَّل أمواله إلى هنا! لقد خَدَعَنا! قال لنا إنّه خسر أمواله في صفقةٍ، لكنّه يعترف الآن أنه حوَّلها ليستدرِج مستقبلنا نحو الشرق.»

أكمل القراءة، بعدما تجاوز كثيرًا مِن السطور:

«لن أترك ميراثي لرجالِ الدِّين يوزِّعونه، سألجأ للوصية لتوزيع أموالي بالتساوي بينكم وأظنُّك لن تعترض على شيءٍ، فالمال وفيرٌ وكلُّه بين يديْك قبل كُلِّ شيءٍ، لكنّي كما أخبرتك أنَّ ليلى...»

قال لنفسه:

«أين تحدَّث عنّي سابقًا؟» صارتْ عيناه مثل الرادار تلتقط أيَّ كلمةٍ تكون شبيهةً بكلمة ليلى، أها! وجَدَها، نعم وجَدَها، وسيقرأ الآن ماذا قيل عنه وأين تمَّ التلاعُب به:

«ليلى أختك ليستْ كبلقيس، الثانية هادئةٌ قنوعةٌ طموحةٌ، لكنّها ليستْ صعبةَ المِراس، أو على الأقل سهلةُ التكيُّف مع ما حولها وسلسة الانسجام مع مَن حولها، المشكلة الكبيرة في ليلى، أنا قلقٌ عليها، عامِلْها بلطفٍ لأجل ذِكراي القريبة حتى لو صارت بعيدةً.

حين حملتْ بهما أمُّهما تمنَّتْ جدًا أنْ يكون أحد الطفلين ذكرًا، رغم أنها إنجليزيةٌ، لكنَّها أحبَّتْ جدًا أنْ تحظى بذكرٍ واحدٍ مِنهما، كانت قد سمعتْ منّي أنَّ الذكر يسند الأنثى، وكانت تعلم أنَّ نظام الميراث

الإسلاميّ يمنحُ الذكر أكثر مِن الأنثى، لعله الطمع؟ لعله الخوف؟ لعله رغبةٌ خوض تجربة الأمومة مع الجنسين؟ لا أعرف، لكنها تمنَّتْ كثيرًا أنْ تكون الأنثى أكبر مِن الذكر، هذه لا أعرف لها سببًا، للنساء أمنياتٌ عجيبةٌ أحيانًا! لسنا مُضطرّين لفهم كلِّ ما يدور في عقولهنّ الصغيرة.

ما يهمُّني مِن كلِّ هذا، أنَّ ليلى تقمَّصتْ في رحم أمها دور الذكر على ما يبدو، أو أنَّ أمها رفضت التسليم بأنَّ ليلى مُجرّد أنثى أخرى، كانتْ تُصِرُّ على معاملتها كذكرٍ، تقصُّ شعرها، وتناديها بأسماءَ مُذكَّرةٍ، وتشتري لها ألعابًا ذُكوريَّةً، وتُطالِبُها بحماية بلقيس، حتى إنّها كانت تُجبِرُها على التبوّل وقوفًا!

لا تستغربْ مِمّا أسرده عليه، ولا تعلِّق بشيءٍ، فكفاني ما يُوجعُني، كلُّ ما ستعلِّق به قلتُه لزوجتي العنيدة كجسدها النحيل الذي يأبى الامتلاء.

ترفَّقْ بليلى، ستُتْعبك قليلاً، ولا تُطْلِعْها على هذه الرسالة إلا لو وجدتَها عنيدةً كأمّها، كنْ لها ساعتها كما كان الخضر لموسى، اصدمْها برفقٍ ولا تُشعِرها بجهلها.»

كان عليٌّ حزينًا كلون السحاب، شاحبًا كطعم الفقر، حائرًا كرائحة التراب، دار حول نفسه عدّة دوراتٍ حتى صنع لنفسه مدارًا ككوكبٍ تائهٍ في الفضاء، رأى الشَّعر المُستعار على رأس الدمية، ذلك الذي ألبستْه له بلقيس مرةً، لَبِسَه، وقف أمام المرآة يتأمَّل نفسه، لقد ذاب ضياعًا في الآخرين، حتى أبيه! هكذا يراه، أنثى، دجاجةً أخرى، فتاةً غبيةً غنيةً جميلةً، مجرّد شجرةٍ عالقةٍ في مكانها للأبد يغطِّي أعلاها ضبابٌ أسودُ يسمّونه شَعرًا! أعليَّ أنْ أقلق لعذريَّتي؟ تبًا! حدَّق في المرآة وخطر له هاجسٌ خفيٌّ:

«هل أنا ما أراني عليه؟ أم ما أريد أنْ أراني عليه؟ أم ما يراني عليه الآخرون؟»

المشكلة ليستْ في البحث عن إجابةٍ، المشكلة هي أنّه طوال الوقت تتغير الأسئلة! أمّا الإجابات فهي خضوعٌ لمنطقية الأسئلة، وهو لا يُحبُّ الخضوع، لا شيءَ منطقيٌّ بوتيرةٍ ثابتةٍ إلا إيمانك أنتَ بالشيء أو كفرك أنتَ به، ولا شيءَ واضحٌ بمعدَّلٍ ثابتٍ، سوى الموت أو الميلاد، بعدهما

كلُّ عينٍ لها بصمةٌ تطبَعُها على وضوح المشهد كما تشتهي «أنا» فينا، فالمفتاح يفتح ويغلق، فلماذا سمِّي مفتاحًا فقط وليس مغلاقًا؟ ليس لأنَّ الفتح قبل الإغلاق، ولكنْ لأننا أسميناه بما أحببنا مِنه؛ فتح الأبواب المغلقة! ومثله المصعد رغم أنه يهبط، لكننا نحبُّ الصعود أكثر مِن الهبوط، ومثله الذكورة والأنوثة، فنحن نصنِّفها ونبني عليها أحكامًا وموانعَ فقط لحاجةٍ في نفوسنا لا أكثر ولا أقل.

قال لنفسه: «ما دامت الذكورة والأنوثة تستوي معًا، فلماذا أصرُّ على أنني عليٌّ ولستُ ليلى!؟» بلع ريقه برعبٍ بالغٍ لأَثَر ذلك السؤال في نفسه، كأنه يواجهها لأول مرةٍ، كان وعيه في تلك اللحظات يتسلَّق سحابةً عابرةً نحو شمس الحقيقة.

لم يحتمل التلوُّث الفكريّ الذي تفشَّى في خلايا دماغه، لم يقدرْ على تجرُّع طعم هذه الفوضى الداخلية، أمسك الكرسيّ وبقوةٍ هائلةٍ هشَّم المرآة وهشَّم معها صورة الأنثى فيها، حمل الرسالة وخرج.

*****

خرجتْ بلقيس مِن عند الطبيبة النسائيّة، إِثْرَ أَلَمٍ ألَمَّ بها أسفل بطنها، تسبَّبَ في ارتباك دورة القمر في جسدها الأنثويّ الهشِّ، خرجتْ مُتضارِبةَ المشاعر والأحاسيس، هتف بها هاجسٌ فظٌّ: «حمقاءُ!»

قالتْ لنفسِها: « هل أنا على حقٍّ أمْ أخطأتُ فيما فعلتُه؟ هل ما فعلتُه بتأثيرٍ مِن كلام خضر لي حوْل الشَّرَف؟ هل المسرحية هي السبب وحديثُنا عن مريم العذراء والنبي يوسف؟ أم أنَّني سئِمتُ مِن تقاليد هذا المجتمع؟ أيُعقَلُ أنَّ كلام ليلى حول تأثُّري بخضر حدَّ التوحُّد، حدَّ الصدى، حدَّ الظلال، جعلني أفعلُ ذلك بتأثيرٍ مِنه؟ ولماذا أنا متضايقةٌ؟ ألستُ ضدَّ هذا المجتمع الشرقيِّ وأعرافه؟ ما الذي جرى؟

أيعقل أنْ يمرَّ بي العمر لأكتشف أنَّ كتابَ حياتي سَطَرَه آخرون وأنَّ آخرين سَطَروا لهم كُتُبَهم، وهكذا، حتى لا نجدَ كتابًا يُنسَبُ إلى صاحبه؟ يا إلهي! هذا تزويرٌ عنيفٌ للشخصيَّة الفرديَّة.

كانتْ واثقةً جدًا وهي تتَّخذ قرارها حين سألتْها الطبيبة:

- أحتاجُ لعملِ فحصٍ داخليٍّ للرَّحِم، أأنت متزوجةٌ أم عذراءُ؟

همس لها وِسواسٌ حين تجسَّد أمامها طيفُ خضر ضاحكًا:

- هل الشرف بضع قطراتٍ مِن دمٍ؟

قالت بثقةٍ:

- قومي باللازم، فأنا لستُ عذراءَ.

- هل أنتِ واثقةٌ مِمّا تقولين؟

سألتْها الطبيبة المُتشكِّكة بابتسامةِ استغرابٍ لهذا التصريح الجريء.

- نعم، افعلي اللازم.

وحينما قامت الطبيبة بالفحص، أصابها هلعٌ وكادتْ تُجَنُّ قهرًا، بدأتْ تهذي لبلقيس:

- أنتِ عذراءُ! أنتِ عذراءُ! يا إلهي! كيف سأتحمَّل مسؤولية ما جرى؟

- هذا شأني وحدي ولا علاقة لكِ به، ولا تخافي لن أحمِّلك أيَّة مسؤوليةٍ.

جلستْ الطبيبة خلف مكتبها وقفَّازاتُها المُلطَّخة بقطراتٍ باهتةٍ مِن الدم لازالت عالقةً بيديْها كسِكِّين الجريمة، ثم قالتْ بهدوءٍ مُشمِئزٍّ، وهي

تنزِع قفَّازاتها:

- لماذا؟ ما الذي يدفعُك لتخسري عذريَّتكِ بطريقةٍ سخيفةٍ كهذه؟ كان يمكنُنا القيام بالفحص بطرقٍ أخرى، إلّا أنّ هذه أسرع فقط.

- لأنَّه بنظري أمرٌ سخيفٌ احتجْتُ للتخلُّص مِنه بطريقةٍ سخيفةٍ.

ردَّتْ بكبرياءٍ وهي ترتدي ملابسها، وتُلقي نظرةً على الطبيبة قبل أنْ تخرج قائلةً دون أنْ تلتفت للوراء:

- سأعودُ لأخذ النتائج فيما بعد.

كانتْ مُحتاجةً لقليلٍ مِن السلام النفسيّ، وتجديدِ الإيمان بقناعاتها، فقرَّرت التوجُّه إلى بيت خضر لتُخبره بما جرى.

*****

جلس عليٌّ على أريكةٍ مُخْمَليّةٍ بنفسجيّةِ اللوْن، تتكوَّن مِن سِتَّة مقاعدَ مُتَّصلةٍ، أربعةٌ مِنها أمام جدارٍ أبيضَ فوقَه لوحةٌ، وتمتدُّ بقيَّة المَقاعد

المُتَّصلةِ بزاويةٍ قائمةٍ خلفَ النافذة المُنخفِضةِ الواسعةِ ذاتِ الستائرِ السَّمْيكةِ، المُسحوبةِ إلى طرْفِ الجِدار نحو الزاوية، مُتيحةً لشمسِ الأصيلِ بزيارةٍ خفيفةٍ تَكشِفُ فيه أَسرارها بدفءٍ صيفيٍّ صَريحٍ، وتَكتَشفُ أسرارَ هذه الغرفةِ وهي تَمُدُّ أشعَّتها مِن خلف الزجاج كعيونٍ فضوليّةٍ على الطاولةِ البيضاءِ المُربَّعةِ لِخَلْقِ ظِلالٍ طويلةٍ للتُّحف، وبريقٍ خلّابٍ للإطاراتِ الفِضيّةِ للصُّور المُتناثرة على الطاولةِ بأناقةٍ عشوائيّةٍ.

أمسكَ عليٌّ بوسادةٍ صغيرةٍ بيضاءَ مُطعَّمةٍ بخيوطٍ بنفسجيّةٍ، مِن وَسائد الأريكة واحتَضَنَها كأنَّه يُحاول إيقاف المَغَصِ الذي أصابَه نتيجةَ توتُّره الشديدِ جرَّاء قراءته لتلك الرسالة وشعورِه بحَرَجِ وجوده هنا؛ في بيت خضر، الذي استقبله بدهشةٍ مُصطَنَعةٍ لهذه الطَّلَّةِ المُرتقَبة حَسَنةِ التَّوقيتِ.

ذهب خضر ليُحضِر شيئًا لِيَشرباه، وأخذَ عليٌّ يتأمَّل هذه الغرفة الواسعة مِن البيت، شعرَ ببُرودةٍ في المكان، ليستْ برودةً بسبب الزيارة المتأخرة للشمس عصرًا، لكنَّها برودةٌ في الروح، برودةٌ في أُنْسِ المكان، برودةٌ

في هَمْسِ الأشياء، كُلُّ شيءٍ في الغرفة صامتٌ واجِمٌ لا يُبين، كُلُّ شيءٍ في الغرفة يُحدِّق في كُلِّ شيءٍ بريبةٍ، شعرَ ببعضِ الغُموض تِجاه هذه المشاعر التي راودَتْه وهو يتأمَّل الغرفة، ويتأمَّل إحساسه بها.

كان يجلس على الطَّرَفِ القَصِيِّ مِن الأريكة بجانبِ يَدِها، على عادةِ أيِّ غريبٍ لا يشعُر براحةٍ ويتلبَّسُه الحَرَجُ في حَضْرةِ الزيارة الأولى، وكأنَّه يُفضِّل الجلوس قريبًا مِن الطرف ليكون جاهزًا للهرب أو الرحيل في أيّة لحظةٍ تَستدعي ذلك.

أقبلَ خضر مُكتفِيًا للترحيب بضيفه بابتسامةٍ هادئةٍ ووجهٍ بَشوشٍ دون تكلُّف عناءِ إلقاءِ كلماتِ الترحيب التقليديَّة، كان يحمِل كوبيْن كبيريْن مِن مشروبٍ باردٍ، لم يَكُنْ لعليٍّ أيُّ قرارٍ في اختيارهما، ولِكَسْرِ حاجز الحَرَج ولمآربَ أخرى، سأل خضر عليًا عن رأيه في اللوّحة المُعلَّقة خلفه، فالتفتَ عليٌّ بكُلِّ جسده ينظر إليها، وصوتُ خضر الهادئ القويّ يسأله:

- ماذا ترى في اللوْحة؟

تأمَّلها عليٌّ طويلاً، وبَدَلَ شُعورِه بالهدوء النفسيّ، ازداد توتُّرًا لشُعوره

بأنَّه أمام اختبارٍ لذائقَته الفنيّة، فهَمَسَتْ نفسُه مُحدِّثةً إيّاه: «ما دام قد اقتناها فلابُدّ وبلا شَكٍّ يراها جميلةً.»

فقال بحذرٍ وهو يُعاوِد اتّخاذ جلسته الأولى، ناظرًا إلى خضر للحظةٍ، ثم ساحبًا بَصَره نحو الطاولة:

- لوحةٌ جميلةٌ، تُشعِرُك براحةٍ نفسيّةٍ بالغةٍ.

نظر إليه خضر مُخترِقًا أعماقه، كأنَّ الجواب لم يَرُقْ له، فأعاد المُحاولة بإلقاءِ سؤالٍ آخر، رغم احتفاظِه بابتسامتِه الهادئة:

- لا شّكَّ هي لوحةٌ جميلةٌ، لكنْ ماذا ترى فيها؟ كيف تُتَرجِمُها؟ وما هو العنوان الذي يمكن أنْ تُطلِقه عليها؟ لو فكَّرتَ في عنوانٍ ما مثلاً.

صمتَ عليٌّ قليلاً، ثم عاود اختلاس النظر إلى اللوْحة على خجلٍ مِنه، وهو يَبذُل جهدًا خارقًا للتركيز فيها، واستخلاصِ عُصارةِ ذوْقه الفنيِّ السليم للبحْث عن جوابٍ مثاليٍّ يَروق لخضر، قبل أنْ يُعبِّر عن رأيه الشخصيِّ:

- أرى اللوحة تَحمِل في مَضامينِها هروبًا أو انغلاقًا على الذات، هناك مَن يَحمِلُ شخصيتيْن، إحداهما حقيقيّةٌ والثانية وهميّةٌ، أو لعلَّ إحداهما

كما يراه الناس والأخرى كما يرى نفسه، قد أُسمّيها «انكِماش».

- انكِماش! لماذا هذا الاسم؟

- لأنَّه يَحمِلُ معنى الانكِماش الداخليِّ على الذات، مِن كمَّاشَة المجتمع التي لا ترحم.

- جميل!

هتف خضر وهو يتأمَّل اللوْحة المُعلَّقة.

كانتْ اللوحة التي يَغلِب عليها اللون البرتقاليّ، عبارةً عن ساقيْن تَحتضِنُهما يَدان بقوّةٍ، وعلى ركبتيْ الساقيْن التَصَقَ رأسٌ مَحنِيٌّ بشكلٍ أفقيٍّ تمامًا كأنّه صخرةٌ مَلقِيةٌ على الركبتيْن، الرأس مُغلَقٌ على نفسه؛ بعُيونه وفمه، حتى يكاد الناظر إلى اللوحة يشعر أنَّ الأنف مُغلَقٌ كذلك، كان الرأس مَلقِيًا وذقنُه ناحية اليمين، وأعلاه ناحية اليسار، بلا شَعْرٍ يُغطِيه.

وفي الخلفيّة ظَهَرَ مُربّعٌ غيرُ حادِّ الزوايا مباشرةً وراء الساقيْن بلونٍ بنيٍّ متناسقٍ مع البرتقاليّ، خَطُّه العلويُّ عند منتصف الذَّقن، وخَطُّه السفليّ

عند مُنتصف الساقيْن، ليبدو كأنّه الظَّهْرُ لذلك الجسد، وخطوطٌ مُتشابكةٌ كالخيوط بلونٍ بُنيٍّ غامقٍ، في كُلِّ ملامح الجسد القابع على نفسه، وفي الخلفيّة ناحية اليمين جسدٌ أبيضُ بالوضعيّة نفسِها لكنّه معكوس اتّجاه الوجه الذي اختفتْ مِنه المَلامح ليبدو كمُومياءَ ينظر إلى الأصل، وعلى الجانبِ الآخرِ يسارِ الجسد البرتقاليِّ بالتَّوازي ما يُشبِهُ عمودَ رخامٍ، وفي تلك المعالم الثلاثة ظهرت الخُطوط المُتشابكة كالخُيوط.

قال خضر:

- اللوْحة تُمثِّلُ لي حالةً إنسانيةً مُهمّةً، ورحلةَ ارتدادٍ نحو الداخل.

همس هاجسٌ لعليٍّ في صدره، يقول له: «أنتَ مُجامِلٌ.» فقال سريعًا لخضر، كأنّه يَدفع هذه التهمة عن نفسه:

- لكنَّ لون اللوحة غيرُ مُتناسقٍ مع لون الأثاث.

قال خضر بصوتٍ قَطَّعه الضحك المُتواصِل:

- هذا هو النقد الوحيد؟ أَلَمْ يَلْفِتْ نظرك ما هو أهمّ؟ لا بأس، لا بأس، هي فقط وجهاتُ نظرٍ.

ساعتَها، شعر عليٌّ بانكِماشٍ داخليٍّ كانكِماش اللوحة خلفه تمامًا، ولعن اللحظة التي نطق فيها بمِثْل هذه العبارة الغبيّة، سيّئة التوقيت والحظّ.

ولِدَفْعِ الحَرَج عنه، قال خضر مُكمِلاً:

- اسمُ اللوحة، لوحةُ الهروبِ عن الذاتِ والحَنينُ للأنا. ها، ما رأيكَ الآن في العنوان؟

التزم عليٌّ الصمتَ، وقد قطَّب حاجبيْه، وعاد لحَضْنِ الوسادة، فليس لأجلِ هذا حضر ليرى خضر! كما أنَّ العنوان أَشْعَرَه بغصَّةٍ خفيّةٍ في نفسه، شعر كأنَّ خضر يُوجِّه الحوار نحو مناطقَ مأهولةٍ في نفسه بألغامِ الشكِّ والحيْرةِ.

شعر به خضر وبما يدور في خَلَدِه، فقال له:

- لا تتضايقْ، كنتُ أُحاوِل أنْ أساعِدَكَ لتنسى توتُّركَ قليلاً، لكنْ يبدو أنّي فشلتُ فشلاً مُمتازًا في ذلك معك. إذن، ما هدفُ هذه الزيارة؟ أم هي مجرَّدُ فُضولٍ مِنكَ غيرِ مُتوقَّعٍ مِنّي؟

اختطف عليٌّ نفسًا عميقًا قصيرًا ليُعاند به توتُّره، ثم قال بلا مُقدِّماتٍ:

- أنا ذَكَرٌ ولستُ أنثى، أنا لا أريدُ أنْ أكونَ أنثى! أنا مُتأكِّدٌ مِن رَغَباتي، هل عليَّ أنْ أقبلَ نظرةَ المجتمع لي؟ لكنَّ أبي يقول كلامًا خطيرًا، كلامًا يريد به قَلْبَ الموازين، وما أدراني أنَّ الرسالة حقيقيّةٌ؟

أخذ يلهَثُ، وارتجفتْ شفتاه، ودارتْ عيناه لا تستقرّان على مَوضِعٍ وكأنّه يُحدِّث نفسه، قبل أنْ يُكمِل، بصوتٍ مُرتعِشٍ مُحَمَّلٍ بصدى نحيبٍ داخليٍّ:

- ولو كانتْ حقيقيّةً، فلماذا أقتنعُ بما فيها؟ بكُلِّ حالٍ هذه التفسيرات حول هويتي لا تُغيِّر الواقع، فأنا ذَكَرٌ لستُ أنثى، لا يهمُّني سببُ حصول كُلِّ ذلك، لا يهمُّني لو أنَّ رغبات أمي وتربيتها لي هي السبب، لا يهمُّني اعتراض أخي معاوية، أنا الآن ذَكَرٌ وعلى الجميع تَقبُّل ذلك.

- أيّةُ رسالةٍ تتحدَّثُ عنها؟

سأل خضر بهدوءٍ، فناوَله عليٌّ الرسالة بيدٍ تتردَّدُ وشفاهٍ ترتجف مِن فرط الانفعال، تناولها خضر وقرأها على مَهَلٍ، ثم طَواها وأعادَها إلى عليٍّ الذي هدأ قليلاً، ليسأله:

- هل تعرفُ قصّة الخضر مع النبي موسى؟ ماذا تَفْهَمُ مِنها؟ وما العِبْرَةُ فيها مِن وجهة نظركَ؟

- لماذا خطرتْ لكَ؟

- كانت مَدار حديثٍ بيني وبين معاوية، يرى أنَّني أستعجلُ الفَهْمَ، والحُكْمَ.

- ليس هكذا أفهمُها، قد يكون مَغزى القصة أنَّ الظاهر ليس كالباطنِ، مشكلة النبي موسى ليس فقط استعجال الفَهْم، كانتْ مُشكلته الأساسيّة عندي أنَّه فَهِمَ الأمور بظاهِرِها ولم يبحثْ عن بَواطنِ الحقائق.

- وما علاقة حياتي بتلك القصة؟ ما علاقتي بها؟ ولماذا عليَّ أنْ أبحثَ عند غيري عن جوابٍ لمَشاكلي؟

- ليس الأمر هكذا.

قال خضر وهو يضحك، ثم أكمل:

- كُلُّ قصةٍ تُعَدُّ تجربةً إنسانيّةً، بعضُ التجارب تكون عامّةً، أيْ أنّها

تُصادِف نقاط تَقاطُعٍ مع نفوس كثيرين، لذا تتحوَّل مِن تجربةٍ إنسانيةٍ فريدةٍ، إلى تجربةٍ عامّةٍ مفيدةٍ. لا شكَّ أنَّ قصة الخضر وموسى مفيدةٌ، لأنَّ مَجالها العلم والنفس معًا، وهما أكثر ما يشترك فيه الناس، أمَّا عنكَ فلو أردتَ أنْ تستفيد مِنها أو تبحثَ عن ذاتِكَ وملامحك خلالها، فأظنُّ أنَّ أقرب ما فيها لك هي قصة الغلام الذي قُتِلَ، فقد استشرف الخضر مستقبله فقتله، ومَن الذي يعرف ما سيكون عليه؟ حتى الغلام نفسه لم يعرفْ.

أحيانًا تمرُّ بنا ظروفٌ تُغيِّرُنا وتَقْلِبُ حقائق وجودنا. هل أنجزتَ شيئًا وأنتَ عليٌّ؟ ماذا لو بقيتْ ليلى؟ أنتَ قتلتَ ليلى فيكَ، ماذا لو كان عليكَ قَتْلُ عليٍّ لتحيا ليلى، لتَسْمَحَ لها بالظهور، أنتَ تخنُقها فيكَ، ولعلّها قادرةٌ على فِعْلِ شيءٍ ما، ولو كان مجرّد أن تكون أنثى! حتى الآن لا نعرفُ مَن الذي يجب أنْ يموت أو يُقتَل عليٌّ أم ليلى، مَن مِنهُما الحقيقة أو المزيف؟ مَن الضحيّة ومَن المُجرِم؟ مَن يُمكِنه أنْ يقدِّم للأنا فيكَ أكثر، أنا كعليٍّ أم أنا كليلى. عليكَ أنْ تَقْتُلَ أحدَهُما ليحيا الآخر بسلامٍ.

ثمّ قام مِن مكانه وهو يَضَعُ يديْه في جيوبه بينما يُصفِّرُ لحنًا لفيروز نَسِيَه عليٌّ، الذي تابَعَه بنَظَره بين حيرته وشعوره ببعض الهدوء النسبيّ إِثْرَ عاصفةِ الغضب التي دقَّتْ أبواب صدره قبل قليلٍ.

عاد خضر ومعه دفترٌ جِلْديٌّ الغلاف بُنِّيُّهُ، قذفه نحو عليٍّ الذي تناوله وقد نَقَزَ مِن مكانه مُتفاديًا الدفتر، رغم أنّه أجاد التقاطه في الهواء، قلَّبه بين يديْه، كان قد نُقِشَ عليه تاريخُ هذه السنة بحروفٍ ذهبيّةٍ، طلب مِنه خضر أنْ يفتحه بتاريخٍ بعيدٍ، فأطاع، بدا كأنَّه دفترُ يوميّاتٍ، ناشَ بعينيْه مَقاطعَ مِن عباراتٍ هنا وهناك، لكنَّه عاد مِن البداية ليَلْتَهِمَ السطور بما يليقُ بوجبةٍ دسمةٍ:

(القلق الوجوديُّ وعبارةُ هاملت الشهيرة «أكونُ أو لا أكونُ»:

القلقُ الوجوديُّ مُرتبطٌ بـمحاولة فَهْمِ الذات، أمَّا عبارة هاملت فمُرتبطةٌ بإثباتِ الذات،

وفَهْمُ الذات مَرحلةٌ سابقةٌ وشرطيّةٌ لإثبات الذات.

يبدأ القلق الوجوديُّ مع أسئلةٍ مِثل:

مَن أنا؟ لماذا أنا على هذه الأرض؟ كيف جئتُ؟ هل هناك رسائلُ مُوجَّهةٌ لي؟ متى أُصبِحُ ذا قيمةٍ؟ وهي أسئلةٌ فلسفيّةٌ وجوديّةٌ كُبرى.

وهناك أسئلةٌ وجوديّةٌ مُرتبطةٌ بالقلق الوجوديِّ ومُحاوَلة فَهْمِ الذات، تكون أصغرَ ومرحليّةً مِثل:

هل أنا سعيدٌ؟ كيف أكون سعيدًا؟ ما هي إمكانيّاتي؟ والأسئلةُ المُتعلِّقةُ بالحريّة، والحقوق والواجبات .

أمَّا إثبات الذات، فيبدأ عندما ينتهي القلق الوجوديُّ، وينتهي المرء مِن فَهْمِ ذاته ولو بشكلٍ نسبيٍّ.

فبَعْدَ أنْ يفهم نفسَه وعلاقتَه بكوكبه والكون، يحاولُ تطبيق ذلك الإيمان ترجمةً على أرض الواقع؛ فأنْ تفهم عقيدتك، أو موهبتك، أو رغباتك، يعني أنْ تبدأ بترجمة ذلك الإيمان على أرض الواقع بتصرُّفاتٍ مُعيّنةٍ وفْقَ نظرتكِ الكُلِّية المُوازِنة بين فهمكَ لذاتكَ وطريقتكَ وما هو مُتاحٌ لكَ لإثبات ذاتك.

فصرخةُ هاملت الشهيرة، كان معناها إثباتُ الذات، بأنْ يكون أو يتحوَّل

إلى عدمٍ، وذلك بعد أنْ فَهِمَ ذاته ورغباته وقدراته، هي مُحاوَلَةٌ مِنه لإثبات الذات التي كانت نتيجةَ صراعٍ طويلٍ مع مُحاوَلَة فَهْمِ الذات وهدفِها في الحياة.

وكَوْنُ القلق الوجوديِّ مِن أكبر وأعمق القضايا التي ناقشَها الإسلام بثوْبه الفلسفيّ، لِمَنْ أَحَبَّ الغوْص في دراسة القرآن مِن هذا الباب، فسوف أَضرِبُ مثلاً واحدًا لذلك في الآية: «وما خلقتُ الجِنَّ والإنس إلّا ليَعبُدونِ» فهي آيةٌ تُبيِّنُ جانبًا مِن فهم الذات «كيف وُجِدْتُ؟ ولماذا خُلِقْتُ ؟»، ثم تُبيِّنُ طريقة إثبات هذه الذات، وذلك عن طريق العبادة لذلك الخالق.

وكثيرًا في حياتِنا اليوميّة ما نمارس هذيْن النشاطيْن، دون أنْ نشعر، وعدم وعينا يجعلُنا أحيانًا نبدأ بإثبات ذوَاتِنا دون فَهْمِها، وذلك مِن خلال تقليد الآخرين، وهنا تبدأ المشاكل والقلق والشعور بالضياع وبالفشل؛ لأنَّ مُحاوَلَة إثبات الذات مِن خلال تقليد الآخرين يجعلُنا لا نعي ذواتَنا وقدراتِنا الفرديّة، البعيدة كُلَّ البُعْدِ أحيانًا عن قُدُراتِنا.

وعليه: حتى ننجح يجبُ أنْ نبدأ بفَهْمِ الذات، لا بإثباتها.)

أنهى عليٌّ قراءةَ النَّص، مُعيدًا الدفتر لخضر، الذي دفعه إليه ثانيةً مُطالِبًا إيّاه بقراءةٍ ثانيةٍ وثالثةٍ.

استَغْربَ مِن الطلب، فقال خضر مُوضِّحًا:

- في المرة الأولى قرأتَ النص فُضولاً، في المرة الثانية اقرَأْه لِتَفهمَ قصدي، وفي المرة الثالثة اقرأْه لتعرفَ أين أنتَ مِن كُلِّ هذا الكلام. هل فهِمْتَني؟

هزَّ عليٌّ رأسه كأنَّه فَهِمَ، وعاد للقراءة مِن جديدٍ، بينما تناول خضر إطارًا لصورةٍ فوتوغرافيةٍ عن الطاولة يحدِّثُها بصمتٍ.

قال عليٌّ:

- لقد قرأتُ، ولا أدري ما علاقتي بكُلِّ ما كُتِبَ هنا! أنا أفهم ذاتي، وفعلاً أنا الآن أسعى لإثباتها.

- كيف ستُثبِتُها؟

وهنا بدأ بينهما حديثٌ سرِّيٌّ جدًا، حول خطّةٍ أعدَّها خضر لأجل عليٍّ كي

يُثبِت هويّته الذكورية، لا يَصِحُّ أنْ أذكُرَها لكم لأنني لا أعرف تفاصيلها الدقيقة، ولأنني مُؤتمَنَةٌ ألّا أخوض فيها قبل أنْ تُؤتِيَ أُكُلَها.

لكنْ يمكنني أنْ أسرِّبَ لكم أنَّ عليًا انفتح دهشةً وحماسًا للاقتراح الذي قدَّمه له خضر.

طَرَقاتٌ واهِنةٌ على الباب، قام خضر للحظَتِها سريعًا، يَستشرِفُ الطارِق، وكانتْ المُفاجأة للجميع؛ بلقيس على الباب، وعليٌّ في الداخل في زيارةٍ سرِّيةً لأوّل مرّةٍ، وخضر الواقف بَصَرi معها، وفِكْرi مع عليٍّ مُحاوِلاً توقُّع ما سيحصل وكيف سيبرِّر المشهد.

*****

نسيتْ بلقيس قصَّتَها مع الطبيبة، نسيتْ أنَّها فقدتْ عُذريَّتها للتوِّ كما تفقِدُ بيضةٌ مسلوقةٌ قُشورَها الهشَّة، نسيتْ أنّها مُحتاجةٌ لخضر جدًا كي يقول لها أنتِ بخيرٍ وعلى حقٍّ وفعلتِ الصواب كما يُطَمْئِنُ الأنبياء أتباعَهُم، نسيتْ أنّها تنتظر ضِحكته الساخرة وهو يسفِّهُ مِن قلقها كما

تَسخَرُ الكهرباء مِن ظلام الليل.

نسيتْ بلقيس كُلَّ ذلك وهي ترى أُختها ليلى مع خضر في بيته، الذي لم يَزُرْهُ فيه أحدٌ قَبْلَها أو سِواها، هكذا أخبرها دومًا.

كانت تقلِّبُ النظر بينهما وقد تتابَعَتْ عليها كُلُّ فُصول الانفعالات مِن برد الشتاء وهشاشةِ الخريف وبَهْرَجة الربيع وحرارة الصيف، هتفتْ بكلمةٍ واحدةٍ فقط، كانتْ كافيةً لتوجِيه تهمةٍ كاملةٍ:

- ليلى!

فهمتْ توأمَها قصْدَها، شعرتْ بمعنى الكلمة، أحسَّ حدْسُها ولو لم تتمكَّن بعدُ مِن تحليل الموقف بمنطقية العقلاء أو براعة السياسيين، فردَّتْ سريعًا:

- أنا عليٌّ ولستُ ليلى، حاسبيني هنا، كعليٍّ الشابّ وليس كليلى الأنثى، لستُ هنا لأسرِق حبيبك منكِ!

تدخَّل خضر مِن فَوْره:

- عليٌّ كان في حالةِ اضطرابٍ عظيمةٍ ولجأ إليَّ كما يلجأ صديقٌ لصديقِه يبثُّه شكواه ويستجديه مزيد فَهْمٍ. كنتُ له مرآةً ليس أكثر.

هزَّتْ رأسها بمرارةٍ وكبرياءَ كأيِّ امرأةٍ مهزومةٍ في حَضْرة الحب، فأدرك خضر بعيونٍ قلقةٍ أنَّها لا تُصدِّق مِن كلِّ ذلك شيئًا، كان عليه المُخاطرة بالكثير الكثير لتنجلي الحقيقة لها، وشعر عليٌّ بسخافةِ الموقِف، فخرج لا يلوي على شيءٍ وقد عزم نيَّته على ما أوحى له به خضر، خضر الذي صار مرآةً تعكِس هواجِسه، ونبيًّا رسالتُه أنْ يُفْهِمَه ذاتَه.

أمسك خضر بلقيس مِن يدِها برفقٍ، لكنَّها سحبتْ يدها سريعًا، وبدأتْ تَهذي بكلِّ ما طفح به لاوعيها، وبكلِّ النتوءات التي برزتْ على سطح وعيها. كَالَت التُّهم، وبثَّت المخاوف، وأعلنت الشكوك، وكشفت الحيرة، لَعَنتْ وباركتْ، أحبَّتْ وكرهتْ، جرَّمَتْ وسامحتْ، سألتْ وأجابتْ، ضحِكَتْ وبَكَتْ، كلُّ ذلك في نصف ساعةٍ واحدةٍ تقلَّبتْ فيها كما يتقلَّب الطقس في جغرافية فلسطين دفعةً واحدةً، وكما يحمِل جسدُ الأنثى الصغير كلَّ تضاريس العالم في أرضٍ واحدةٍ.

كانتْ بلقيس لحظتها أنثى بامتيازٍ؛ وإنسانًا حقيقيًا بكلِّ هشاشته، إنسانًا كاملاً اجتمع فيه كلُّ الناس، لم تكنْ تعلمُ هل هذا صوتُها أم صوتُ الآخرين فيها، لم تدركْ هل هذه هي أم مخاوفها تنطق، هل بلقيس الآن هي الأنا الصافية أم مجموع الآخرين فيها! لكنَّها كانت تحتاجُ لأنْ تقول كلَّ شيءٍ لترتاح، كما طَبْعُ النساء، وكان خضر يدرك ذلك جيدًا؛ فالمرأة لا تتوقَّف عن جنون الهَذَيان إلّا بعد أنْ يخرُج مِنها شيطان الوساوس، فإذا خرج أنْكَرَتْه فيها.

كان خضر يعلم أنَّ في دماغ المرأة شيءٌ غريبٌ إذا تشبَّع بالوساوس احتقنَ ولا ينفع معه ساعتها صبرٌ ولا تفكيرٌ، بقعةٌ عميقةٌ كالصندوق الأسود لا تطرُدُها عقلانيةُ الأفكار ولا هدوءُ الإقناع، لابُدّ مِن تفريغِها، لابُدّ أنْ أخبره بما عندي، لابُدّ أنْ أريح ضميري، وهي لا تنتظر ردَّ فعلِه، هي فقط مُحتاجةٌ لاستفراغ كلِّ تلك الأفكار السوداء التي داهمتها على غفلةٍ مِنها في لحظات هَشاشَتِها أو ضَعْفِها، لذا أغمض عينيْه عن كلامها، وهو يصنع حاجزَ صدٍّ منيعٍ للشعور حتى لا يتأثَّر بكلامها الذي لا تنتظر عليه إلا ابتسامةً بسيطةً وكلماتٍ خفيفةً تملأ المساحة الفارغة في الصندوق

الأسود بدل كلِّ ما تقيَّأتُه مِن كلماتٍ مُتخَمَةِ التجريح، وهلوساتٍ باذِخَةِ الاتِّهام.

انتظر حتى انتهتْ مِن كلامها، كان لابُدّ أنْ يفاجئَها بشيءٍ لا تتوقَّعُه حتى تهدأ، كان لابُدّ مِن المخاطرة بالكثير للحصول على أكثر، فقال بهدوءٍ شديدٍ، ولكنَّه لم يَنْسَ أنْ يُظْهِرَ على ملامحه أماراتِ التأثُّر والتعاطف معها، فلو لم يفعلْ لاشتعلتْ نيرانُها ببرودِه جدًا، فلا شيء يَحُثُّ النيران للظهور كالبرد القاتل:

- بلقيس، أقدِّرُ كُلَّ ما قُلتِه، معكِ حقٌّ في كلِّ مخاوِفِكِ وفي كلِّ شُكوكِكِ، لكن اسمحي لي أنْ أُدافِع عن نفسي بما لا تعلمينَه عنّي، دعيني أُطلِعُكِ على سِرّي الكبير.

ثم قادَهَا بلُطفٍ إلى غرفةٍ خلفيّةٍ في بيته، غرفةٍ مُغلقةٍ، غرفةٍ لم تدخُلْها مِن قبلُ، وهي تحدِّق فيه، كطفلةٍ يتيمةٍ يُبعِدُونها عن نعْش أُمِّها، لا هي تعرف لماذا يبكون، ولا هي تعرف ما بال أمها، لكنَّها تشعر بالضياع.

*****

جُدران

قفزتُ مِن جسدي وقعدتُ على كرسيٍّ أُراقِبُني كأنَّني أُخرى غيري.

انسحبتْ «أنا و»الأنا»، مِن الجسد الصَّاخِب، والنَّفْسِ المُتخبِّطة المُنْشَطِرة على ذاتها، ووقفتا تتجادلان فيما حصل. قالت «الأنا»:

- حسنًا، هذا يكفي، لقد أرهقتِ الجميعَ وأفسدتِ كلَّ شيءٍ.

- دعيني لشأني، فقط أحتاجُ لقراءة أوراقي جيدًا فالخطُّ غير واضحٍ، أها!

ها هي، ورقةٌ مُهمّةٌ، ماذا تقول؟ دعيني أرى، لحظةً فقط لو سمحتِ.

- الخطُّ غيرُ واضحٍ! (قالتْ الأنا بسخريةٍ)، هذا لأنَّ آخرَ كَتَبَه.

- اسكتي اسكتي قليلاً، دعيني أركِّز.

- لن تركِّزي ما دمتِ لا تنظُرين إلى الأعماق إلى حيث «الأنا». أنتِ الآن أشبَهُ بتُربةٍ تستقبلُ كلَّ بذرةٍ عبثتْ فيها الريح. إنْ أردتِ الحقيقة، كان يجب أنْ تركِّزي معي، مع صوتي وليس مع أصواتِ الآخرين، ولذا أعترفُ أنني أخطأتُ مرَّتيْن؛ مرةً حين أعطيتُكِ فرصةً ووثقتُ بكِ، ومرةً حين آمنتُ أنني أَقْدِرُ وحدي على المواجهة. لذا، انظري إليَّ هنا!

نظرت «أنا» إليها بخجلِ المَخذولين، وهي تُكمِلُ:

- قرَّرتُ الآن أنَّه حان دوري، وسأطردُ المُزيَّف فيكِ قبل أنْ يَسْتشري.

- ستتعبين، ليس سهلاً أنْ تتجرَّدي.

- سنرى، يكفيني أنْ ترتاح النفس قليلاً، وتَعرِفَ نفسَها وتدركَ ما يدور حولها.

« ٣ »

كمْ هو جميلٌ وأنيقٌ أنْ تلتقي ذاتك صدفةً
فتتصافحان وتتبادلان شُرْبَ الأفكار سويّةً على
مقهى الأيام، كم هو جميلٌ أنْ تسير في دربكَ نحو
الأعماق في طريقٍ مُزهِرٍ بتقبُّل الذات.

هذا ما حصل مع بلقيس وتوأمَها، لكنْ هل يستمرُّ
الأمر؟ هل يكون أول لقاءٍ بين كلِّ نفسٍ وحقيقتِها

مُفرحًا؟ أو قد يكون موجعًا، أو صادمًا، أو عاديًا جدًا، لعلَّه لا يغيِّر شيئًا فتُلْقِي بنفسِك التي اكتشفتَها للتوِّ على قارعة الوعي لأنَّكَ تريد أنْ تعيش وهمًا جميلاً ولو كَذِبًا على نفسِكَ.

لنرَ كيف كان اللقاء، أو اللقاءات، واخترْ لنفسكَ عزيزي القارئ لقاءك الخامّ إنْ حظيتَ به يومًا.

هاربةٌ مِن كلِّ شيءٍ، مُختبئةٌ مِن كلِّ أحدٍ، مُرتدَّةٌ نحو الذات، تبحثُ عن إجاباتٍ، ما زالتْ تنتظر غيرَها ليُبرْمِج وَعْيَها، دون أنْ تنتبه إلى أنَّ طَرْحَ السؤال يحدِّد الجواب ويقرِّر موقعَ الآخر الغريب في ذواتنا، مازالتْ لم تدركْ أنَّ طَرْحَ الأسئلة أحيانًا أهمُّ مِن البحث عن إجاباتٍ، لأنَّ السؤال مؤثِّرٌ عليهم هم، والجواب تأثيرهم فيكم أنتم.

اعتزلت بلقيس الناس أيامًا، قبل أنْ تختنق بجُدران البيت وجدران الروح التي خنقتْ صوتها وحَبَستْ شُعورها، فخرجتْ مِن البيت تتمشى قليلاً،

لعلها تفهم كثيرًا وتلتقي روحها على قارعةٍ ما.

وصلتْ بلقيس إلى حيثُ لمْ تتوقَّعْ، بعد أنْ أنبتتْ بُذور مَخاوفها، شجرةً مِن شوكِ الشكِّ والحيرة، كانتْ بلقيس التي تبحثُ عن ذاتِها هي التي تسير بلا وعيٍ مِنها، حتى وصلتْ إلى المسرح، فتحتْه وهُرِعَتْ إلى غرفة تغيير الملابس، هناك فقط، انتبهتْ لنفسها وهي ترى وجهَها في المرآة.

جلستْ طويلاً تتأمَّل ذاتها بصمتٍ، كأنَّها تراها لأول مرةٍ.

مسحتْ دموعَها بكلِّ كفِّ يَدِها، فأُهينتْ أناقةُ الكُحْلِ الأسود على سواحل خديْها، ضحكتْ بشدّةٍ لهذا المشهد، ثم ضحكتْ بمرارةٍ لأنَّها تضحك. أوهمتْ نفسها أنَّها سمعتْ صوتًا، لتَجِدَ لنفسِها عذرًا أمام المرآة بالخروج مِن صومعة أحزانها، توجَّهتْ نحو خشبة المسرح، كان المكان خاليًا جدًا، خاليًا مِن الناس والأنفاس والذكريات والأرواح وبقايا الهمسات، كان باردًا ككهفٍ ميْتٍ تثاقلتْ عنه الشمس ونَسِيَه المطر.

وقفتْ على خشبة المسرح، تُواجِه المَقاعد الخالية، لا فرقَ! فالمشاهدون في بدايةِ كلِّ عرضٍ مسرحيٍّ أشبه بتلك المقاعد، أجسادٌ خاليةٌ، وجوهٌ بلا

ملامحَ، وعقولٌ بلا أفكارٍ، وما إنْ ينتهي العرض المسرحيُّ حتى يتحوَلوا إلى نسخٍ مُتشابهةٍ تردِّد صدى إبداعها.

- إبداعي أم إبداع خضر؟ كنتُ أشعر بذلك، والآن تأكدتُ، لستُ أكثرَ مِن دميةٍ يوجِّهُها خضر لتحقيق مُخطَّطه السرّيِّ.

خفق قلبُها بشدَّةٍ للفكرة، شعرتْ ببعض الذنب وبقايا همسٍ ضعيفٍ صادرٍ مِن ضميرٍ يؤنِّبُ، فأسرعتْ نحو الطرف الآخر مِن خشبة المسرح، وقد اخشوشن صوتُها، لتتقمَّص روح خضر، وتُحاوِل توقُّع ما سيقوله لو سمعها:

- لمْ تكوني يومًا دميةً يا بلقيس، أنتِ شريكةُ هذا النجاح.

هُرِعَتْ إلى الطرف الثاني مِن المسرح:

- لو كنتُ شريكةً لأخبرتَني منذ البداية.

ركضتْ نحو الطرف الثاني مُتقمِّصةً شخصية خضر مرةً أخرى:

- ما كنتُ أستطيع إخبارَكِ.

- لماذا؟

- لو أخبرتكِ لَمَا تصرَّفتِ على طبيعتكِ، لكنَّني كنتُ سأخبركِ بكلِّ حالٍ.

- والجمهور؟ المَخدوع، تستغلُّ مشاعرهم لتَعْبَثَ بِوَعْيهم؟

- في كلِّ تجربةٍ علميّةٍ لابُدّ مِن جمهورٍ، ثم إنَّه بكلِّ حالٍ يتأثَّر بي أو بغيري، كلُّ الفرق أنني واعٍ لِمَا أفعلُه.

مسحتْ عن خدَّيْها دموعَها، وقد اقتنعتْ قليلاً بكلامه الذي تخيَّلته، كأنَّها تُؤمِن بما هو عليه، لكنَّ غضبها أعماها، قرَّرتْ الاستمرار في هذه المسرحية المُنفرِدة لتَفْهَم أكثر، فأحيانًا الكلام، صدًى لأصواتنا الداخلية تحتاج لأنْ تتحرَّر مِن هيئتها الشبحيّة لتتجسَّد كلماتٍ كي نراها ونرى معها أنفسَنا أوضح.

وقفتْ حيث هي، ثم تردَّدتْ وتقدَّمتْ نحو مكانه، ثم عادتْ، لكنَّها قرَّرتْ أنْ تبدأ به لتصدَّ هجمته الفكرية، فقالتْ على لسانه وقد تمثَّلتْه بشرًا سويًا أمامها:

- بلقيس، أنا أحبُّكِ، تعلمين هذا.

هنا علا صوت الغضب في رأسها، فصرختْ قائلةً للمقاعد الخالية، وقد استعادتْ كلَّ مشاعرها المؤلمة:

- لو أحبَّني لما اختلى بأختي، لو أحبَّني لعامَلَني بدفءٍ أكثر، لو أحبَّني لأثبت ذلك، لو أحبني لهتف قلبي صلاةً له وتقديسًا، الحبُّ المُتبادَل لا يحتمل كلَّ هذا الثِّقَل في القلب، أحيانًا لا أُطيقُ مِنه قُبلَةً ولا لمسةً، لو أحبَّني لكان صوته تلاوتي، ولكان عيونه صلاتي، ولكان قلبُه مِحراب عبادتي، لكنَّني لا أحبُّه لأنَّه لا يحبُّني.

حين نفَّستْ عن غضبها هذا، عادتْ فوقفتْ مَكانه، وقد تلبَّستْها كلُّ مشاعر العشق والشوق وعذابات الحب التي تتمنَّى أنْ تلمَسها فيه، وقالتْ على لسانه:

- أحبُّكِ، لكنَّني لا أحبُّ مِن نفسي أنْ تتكرَّر تجربتي السابقة، أحبُّكِ لكنَّني لا أحبُّ فيكِ انصياعكِ الشديد أحيانًا، وتمرُّدكِ المُخيف أحيانَ أخرى، أحبكِ ولكنني أحبكِ كما أتمنّى.

- أنتَ تحبُّني حين أكون لكَ صدًى فقط.

- وماذا في ذلك؟ ألا تحبِّين صوتي؟

ثم ضحكتْ بشدَّةٍ، لا تعرف أكانتْ ضحكتُها ضحكتُه أم أنَّها ضحكتْ حقًا، لكنَّها أكملتْ على لسانه بما أخبرها به في بيته:

- لقد رفضوا مشروعي البحثيّ، كنتُ واثقًا مِنه، طاقةُ الأصوات، لا تعرفين معنى طاقةُ الأصوات؟ أنْ تُسيطري على وَعْي الآخرين، وتؤثِّري فيهم بحروفكِ، بأصواتكِ، بكلماتكِ، تجعلينهم يتغنّون بأفكاركِ، تجعلينهم يقتنعون بكلماتكِ، حين تكتبين بكامل شعوركِ، حينما تُحمِّلين حروفك كلَّ طاقتكِ النفسيّة، حينما يصير المستمع أو القارئ صدًى لتجرُبتِكِ الشعوريّة، يبكي كما بكى الكاتب، ويضحك كما ضحك.

حينما تكتبين في مزاجٍ ما، فينتقل هذا المزاج له، كنتُ بحاجةٍ لكِ وللمسرح لأُثبِتَ نظريَّتي تلك، المختبر في البيت؟ ليس أكثر مِن مكانٍ لتجربة طاقة الأصوات حين تصير في كلماتٍ، أرأيتِ للؤلؤ قيمةً في محارة؟ يصير جميلاً في أعناق النساء وعلى رؤوس الملوك، هكذا الأصوات تزداد طاقتها كلَّما تراصَّتْ مع أخواتها في عقود الكلمات

وتيجان العبارات.

- انتظر قليلاً، وما دوري أنا؟ لماذا أنا؟

- لأنكِ مُبدعةٌ، لأنَّكِ الأقدر على إحياء الكلمات الميْتة بين السطور بقُبلةٍ مِن صوتكِ وضمَّةٍ مِن قلبكِ لها، لا أحدَ سيُمكِنُه أنْ يشعُر بما شعرتُ به وبما تَحمِلُه كلماتي إلا أنتِ، لا أحد يُمكِنه نَقْلُ تجربتي الشعوريّة مثلكِ، لا يمكن لأحدٍ أنْ يؤثِّر في الحضور مثلكِ، أَعَرَفْتِ الآن لماذا أنتِ؟ ولماذا أخفيتُ عنكِ مع أنَّكِ شريكتي؟ ولماذا أحبُّكِ؟

- أنتَ تتلاعبُ في وَعْي الناس!

- الكلُّ يفعل، بوعيٍ مِنهم أو بغيرِ وعْيٍ، أنا فقط اكتشفتُ الظاهرة وأردتُ إثباتها، أنا مُكتشِفٌ ولستُ مُخترعًا، أرأيتِ القرآن؟ ليس عبقريًا ولا مُعجِزًا كما يظنُّ الحمقى بلغته أو بلاغته أو أرقامه أو أيِّ شيءٍ آخر مِمّا يتناثر في كلِّ الكُتُب، القرآن مُعجِزٌ فقط في طاقته الصوتيّة الهائلة، التي تنتقل مِن المتكلم إلى القارئ، هذا الشيء الوحيد الذي يجعلني أومن بأنّه كتابٌ إلهيٌّ! لا يمكن لطاقةٍ رهيبةٍ كهذه أنْ تَصْدُر عن بشرٍ،

لتؤثِّر هكذا في البشر بمجرَّد سماعِها حتى لِمَن لا يفهم العربية، القرآن يا عزيزتي مُعجِزٌ برَصْفِ كلماته بطريقةٍ تجعله مصدرًا هائلاً للطاقة الشعوريّة. هل أنا مجرمٌ هكذا؟

بدأتْ تهدأ، عاد لها بعضُ سُكونها، لكنها لا تشعر بارتياحٍ كاملٍ، هناك شيءٌ ما لازال يخنُقها ويضرب مراكز السلام في داخلها بمَقْتلٍ، ما الذي يُضايقها للآن؟ أنّه خَدَعَها لتصير فأرَ تجاربٍ؟ لا، هي سعيدةٌ أنّه اختارها مِن بين الناس. أهو الحبُّ الباردُ بينهما كَكُرة ثلجٍ لا تذوب ولا تُذيب المسافات؟ لا فعِرْقُها الإنجليزي يسهِّل عليها تحمُّل قسوة الحب والبرد، أهو القلق؟ مِمَّ هي قلقةٌ؟ لو أنَّ ليلى هنا، لفهمتْ نفسَها أكثر!

- ليلى!

هتفتْ لنفسها، وكأنَّ كلَّ الكون كواكبُ وليلى شمسُه الوحيدة!

أسرعتْ نحو طرف المسرح، أنارتْ بعض الكشَّافات، شعرتْ بارتياحٍ يتناسب مع تلك الإضاءة النفسيَّة حين تذكَّرتْ ليلى، عقلُها لغزٌ شيفرته الآن ليلى، وقلبُها بابٌ مُغلقٌ مفتاحه الآن ليلى.

ركضتْ نحو غُرفة المَلابس، أحضرتْ شَعْرًا مُستعارًا، ووقفتْ على المسرح ثانيةً، تُكْمِل اللعبةَ، لعبةَ المُواجهة، مع الأنا.

- أنا عليٌّ يا خضر ولستُ ليلى.

كان الصوتُ مُنكسرًا كأنَّه يعتذر.

وقفتْ بلقيس صامتةً بينهما، بينَها وهي تلبِس شَعْرًا مُستعارًا وبين طيف خضر أمامها، كأنَّها تنتظر ردَّ خضر حقيقةً على توأمها، كأنَّها تَشْهَدُ جريمةً ستحْدُث الآن، كأنَّها تنتظر إدانته، واعترافه بنفسه.

بقى خضر صامتًا، وشعرتْ بلقيس أنَّ خللاً ما يستوطن المَشهد، أعادتْ لِبْسَ الشَّعر المُستعار ووقفتْ مكان ليلى، أرادتْ أنْ تكرِّر الجُملة، تخيَّلتْ توأمها الآن تنطق، فعرفتْ أنَّها لا يمكن أنْ تلبِس شَعرًا مُستعارًا، فرَمَتْه بعيدًا، وقالت:

- أنا عليٌّ يا خضر ولستُ ليلى!

هذه المرة كان الصوت قويًا مُتحدِّيًا عنيدًا مُستفِزًا.

وهنا ردَّ خضر بسرعةٍ وبهدوءٍ شديدٍ (ركضتْ إلى الجهة المُقابلة قبل أنْ يتسرَّب الكلام الحُبلى به ويتحوَّل إلى طاقةٍ مُهدّرةٍ فتضيع الفكرة):

- أَعلمُ يقينًا أنَّكَ عليٌّ، على الأقل أنكَ تحبُّ أنْ أعاملكَ كعليٍّ، لستُ مِمّن يفرِض على الناس كيف يروْن أنفسهم، حتى لو كنتَ ليلى حقيقةً، فيسرُّني أنْ أراكَ كما تحبُّ أنْ تراك.

- أَخْبِرْ بلقيس إذن!

- حمقاءُ، تَعْلَمُ موقِفكَ ثم تظنُّكَ جئتَ لترمي شِباكَ حُبِّكَ لرجلٍ مثلكِ، على الأقل وقبل أنْ يصير شَعرُكَ طويلاً، وما لمْ تقتلْ ليلى فيكَ، فأنتَ صديقي، حتى لو رأيتكَ أنثى، فأنتَ ترى نفسك رجلاً لا يشتهي الذكور، هي فقط تغار منكَ!

- لا أغارُ مِن أحدٍ!

صرختْ بلقيس، قبل أنْ تخجل مِن صوتها الذي شرَّد الأطياف بعيدًا، أغمضتْ عينيْها لتَستعيدَهم، لتهدِّئ ضربات قلبها التي أرَّقتْ حُضورهم، ثم قالتْ بكبرياءٍ مجروحٍ:

- لعلَّني فقط أغار قليلاً، وأشُكُّ كثيرًا، وأتمنّى لو أنَّ عليًا يكبُر فيَّ أحيانًا.

ثم صمتتْ، ثم وقفتْ بلقيس التائهةُ والحائرةُ والمُرتبكةُ والقَلقةُ والموجوعةُ بينهما. وقفتْ في منتصف خشبة المسرح، وقفتْ لا هي هنا ولا هي هناك، وقفتْ كبلقيس مجرَّدةً مِن كلِّ شيءٍ وقد تناثر حولها كلُّ شيءٍ ولم يبقَ أمامها إلّا إعادة لَمْلَمَته وتركيبه لرؤية الصورة أوضحَ. إذنْ، لابُدّ مِن إنارةٍ أقوى، ركضتْ سريعًا وأضاءتْ كلَّ كشَّافات المسرح.

دارتْ حول نفسِها، ثم أسرعتْ بإحضار ثلاثةٍ مِن الكراسيّ الخشبيّة مِن خلف السِّتار، كانتْ تُحضِرُها واحدًا واحدًا، كأنّها تَحمِلُ عليها أحدًا، وضعتْها مُتباعِدةً في نصف دائرةٍ وسط المسرح، وخاطبتْها:

- أنتَ خضر، أنتَ عليٌّ، وأخيرًا أنتَ معاوية. لا، لا، أنتَ معاوية وأنتَ خضر وأنتَ عليٌّ. نعم، معاوية وعليٌّ ليسا صديقيْن، لن أسمح لكما بإفساد الجلسة بنقاشكما الحادِّ ككُلِّ مرةٍ.

وأنا بلقيس المُضرَّجة بكم وبأصواتكم وأفكاركم داخلي، عمَّا قليلٍ سأُشفَى مِنكم جميعًا، قبل ذلك اسمحوا لي أنْ يتحوَّل ضمير «أنا» المتكلِّم فيَّ

إلى ضمير»هي» غائبٍ في أعماقي، وستنصتون جميعًا، بما فيهم أنا!

- بلقيس إنسانةٌ بسيطةٌ، ذاتُ موهبةٍ بديعةٍ، بلقيس تحبُّ الهدوء النفسيّ وتستمتع بالتمثيل لأنَّها تستمتع بأنْ تشعُر بما يشعُر به غيرها، لكنَّها للأسف!

ثم تهدَّج صوتها وهي تضرِبُ يديْها على جانبيْها بيأسٍ، وتنحني أكتافُها للأمام باستسلامٍ، لتُكمِل:

- رغم أنَّ بلقيس ممثلةٌ بارعةٌ تُجيد تقمُّص الأرواح وتبديل القلوب، ولبْس الأقنعة النفسيّة، إلّا أنّها عجزتْ تمامًا عن فهمكم أيُّها السادة.

خضر يا عزيزي، بلقيس ليستْ غاضبةً مِنك، لكنَّها غاضبةٌ مِن أَثَرِكَ فيها، هي تريدُ فقط ألَّا تحتلَّ أفكارها، هي تريدُ استقلالها، تريدُ أنْ تظلَّ كما هي وتحبَّها بقوّةٍ كما هي.

أخي وتوأمي عليٌّ، أرأيتَ؟ الآن أناديكَ باسمكِ الذي تحبُّ! أكان عليكَ أنْ تترُكنا وتهرب لنُدركَ كم نحبُّك كما أنتَ؟ أين أنتَ؟ أنا أحبُّك ولا يهمُّني اسمكَ أو شكلكَ، نعم كنتُ أشعر بغَيْرةٍ مِنكَ، غيْرةٍ مُركَّبةٍ؛ غيرتي

السابقة مِن ظهور ليلى في حضرة خضر، وغيْرةٍ مِن ظهور عليٍّ في حضرة بلقيس، أغار مِن عليٍّ الذي فعل ما عجزتُ عنه، أغار لأنّه يذكِّرُني بضعفي وعجزي وانقيادي لمجتمعٍ لم آلَفْه ولم أستطعْ التعوُّد عليه.

معاوية، أيُّها الشرقيُّ العنيد، كم تُغْضِبُني بصوتِكَ العالي وتعنُّتكَ الذُّكوريّ! لستُ أفهمُكَ، لستُ أفهم غَضْبَتَكَ مِنّا حين نعيش كَما تعوَّدْنا، وبَشاشَتَك لأيِّ جميلةٍ حين تُداعِبُ ذُكورَتك في حضورنا أو غيابنا. لستُ أفهمكَ حين تتباهى بذُكُورتِك، وتكبُتُها في عليٍّ، لستُ أفهمكَ حين تخاف عليَّ أو مِنّي، لا أعرف!

ثم ركضتْ إلى الإضاءة، وسلَّطَتْها على نفسها، بقعةٌ ضوئيَةٌ في المنتصف، والكراسي قد أصبحتْ فارغةً مِن أطيافها، ولَّتْ وجهها قِبَلَ الجمهور الصامت، وقالت:

- يمرُّ العمر لنكتشفَ أنَّ كِتابَ حياتِنا سَطَره آخرون، وأنَّ آخرين سطروا لهم كُتُبَهم، وهكذا، حتى لا نجد كتابًا يُنْسَبُ إلى صاحبه. تزويرٌ عنيفٌ للشخصية الفردية. قَبْلَ الآن بلقيس كانتْ أخرى غيري، والآن فهمتُني

أكثر وعرفتُني أكثر، وأنتم كلُّكم مُدانون، لستم أبرياءَ تمامًا، ولا مجرمون حقًا، أنتم مثلي يصنعونكم ثم تظنون أنَّ هذا هو ما أنتم عليه حقيقةً، يخرِّبون لاوعيكم ثم يحاسبونكم حين تنكشفون لهم بوعيكم.

كونوا بخيرٍ، كونوا أنتم لا ظلَّ الآخرين الغرباء فيكم.

ثم هُرِعَتْ إلى أضواء المسرح، فأطفأتْها تمامًا، وقعدتْ مُنغلقةً على نفسها تضمُّ ساقيْها بساعديْها ورأسُها في ظلامِ حِجْرِها تبكي بصمتٍ، تستمعُ بقلبها إلى تصفيق أشباح الحضور الغائبين.

*****

كان ذلك الشابُّ القابعُ في عَتْمةٍ مِن العين، خلف المُستمعين الذين كانوا ينصتون كأنَّ على رؤوسهم الطَّيْر وفي أفواههم حصى الرَّهبة، يخفقُ قلبُه بقوّةٍ حتى اللحظة، منذ إشارةِ الشيخ إليه يرحِّب به بين صفوفِ المُقاتلين المُنضمِّين للثوار مع داعش.

انكمشَ على نفسه، وحاول قدْر المُستطاع حَبْسَ أنفاسِه خوفًا مِن أنْ

يبدو صدى أنفاسِه أنثويًا كصوته في العادة.

كان السؤال في صدره وهو يستمع إلى الشيخ يتحدَّث عن قصة النبي موسى مع الخضر، يُزَمْجِر كمحرِّك سيارةِ سباقٍ تستعدُّ للانطلاق، لكنْ يكبَحُه بالخوف، حتى إذا أطلقَ الشيخ طلقةَ الانطلاق إلى موضوعٍ آخر، فاستفزَّ عليًا بتحييد العِبْرة مِن القصة جانبًا، لم يصبر فجاء صوته مُتغالِظًا مُتخاشِنًا مُتحشرِجًا وهو يقول على استحياءٍ لم يعرِفْه عن نفسه مِن قبلُ إلّا وسط هذا الحشد الذكوريِّ الضخم:

- ماذا عن العِبْرة مِن القصة؟

وهنا، لحظتَها ودَّ لو ماتَ قبل هذا وكان سؤالُه نسْيًا مَنسيًا، فقد التفَّت الأعناق كلُّها نحوه، وتطاولتْ عينا الشيخ إليه وكأنَّه يعنِّفُه لأنَّه تجرَّأ وارتكبَ جريمة السؤال، أو محاولة الفهم، كان صمتًا ثقيلاً مِن الجميع، تصبَّر الشيخ قليلاً، ثم قال بنفاذِ صبرٍ واضحٍ:

- قصةُ الخضر مع النبي موسى أيُّها الغَرُّ الصغيرُ، تُعلِّمُنا ألَّا نسأل، بل يَجِبُ علينا السمع والطاعة في حضرة مَن هُم أعلم وأعلى مِنّا، وإلّا فإنَّ

عاقِبَتَنا ستكون الطرد، ومصيرَنا سيكون مزيدًا مِن الجهل.

ثم انفضَّ المَجلِس على هذا، والشابُّ يعنِّفُ نفسه، فانهار حلمه بأنْ يطلبُ مِن الشيخ أنْ يسمح له بحَمْلِ السلاح بدل تلك الإهانة في تعيينه الآن طباخًا للمجموعة.

*****

كانتْ بلقيس صامتةً أغلبَ الوقت، صامتةَ اللسان والروح والعقل معًا، كانت كيانًا صامتًا بامتياز، لم يكنْ يَنطِقُ إلَّا عيونُها المُلتاعة لفَقْدِ عليٍّ وهي تصوِّبُهما بقسوةٍ نحو معاوية الذي تَحاشى النظر إليها أو التعامُل معها منذ غياب عليٍّ المُفاجئ واختفائه الصامت الثقيل، وفي اللحظة التي يتلَّقى فيها معاوية رصاصةً مِن عيون بلقيس المُصوَّبة نحوه دائمًا، كان يقابلها بنظرةٍ قاسيةٍ مِن الحديد لا تلين، مُعلِنًا إصراره على موقفه بصمتٍ كصمتِ البِحَار في صيفٍ، ظاهرُها الصمت وباطنها صاخبٌ لا يهدأ.

كان يشعر بثِقَلِ المسؤولية في أعماقه وبتأنيب ضميرٍ خفيٍّ لا يَعْرِف مردَّه إلى أين ولا مصدره مِن أين، لكنَّه يشعُر بثِقَلٍ غريبٍ لم يعْهَدْه مِن نفسه وهو المعتاد على أنَّه لا يخطئ، مِن أين جاءه هذا الشعور البهيم كلَيْلِ المُسافر؟

في غرفته صباحًا، وقف أمام المرآة ليُلقِي نظرةً أخيرةً على نفسه قبل أنْ يخرُج، فسمِع صوتًا داخليًا خَفِيًا، لم يسمعْه مِن قبلُ، فهبط قلبه فَزَعًا إلى بطنه حتى شعر بمغصٍ مُفاجئٍ، وهو يستمع إلى ذلك الصوت المُختنِق بين القلب والحنجرة:

- لقد خيَّبتَ توقُّعات أبيك فيك، أيُّها الذَّكَرُ الوحيد!

شعر بقلقٍ شديدٍ، وتغضَّنَ جبينُه، وهو يحدِّق في المرآة كأنَّه يبحث عن شخصٍ خفيٍّ خلف صورته المُنعكِسة.

سأل نفسه:

- ما الذي يَجري؟ وماذا اعتراني؟ رحمةُ الله عليك يا أبي، شَرِكَتُك بأحسن حالٍ وأنا...

عاد الصوت الخفيُّ في المرآة ليُقاطِعه:

- وأنتَ ماذا؟ أين ليلى؟ ألم تكنْ مُصِرًا على أنَّها ليلى؟ أين أختكَ... عِرْضُك، الآن؟ تظنُّ أنَّك على حقٍّ، فكيف تترُكها لا تعلمُ شيئًا عن حالها، أين وصية أبيك مِنك؟

انهار تمامًا وهو يستمِعُ إلى الصوت بوضوحٍ، كاد يفقد أعصابه وهو يتلفَّتُ حوله، جلس على طرف السرير، وهو يقول لنفسه:

- يبدو أنني مرهقٌ قليلاً، وأُهلوِسُ لأظنَّ طَيْفَ أبي يحدِّثُني.

- لا، هذا صوتكَ أنتَ.

عاد الصوت ثانيةً، بلا مرآةٍ، فقفز مِن مكانه نحو المرآة يصرخ في وجهه:

- أنا لم أخطئ، هي التي أصرَّتْ على الهرب، فلْتهْرُبْ ولْتَبْحَثْ عمّا يُريحُها.

- كنتَ عنيدًا وقاسيًا معها، خيَّبْتَ توقُّعات أبيك.

- هل ظلمتُ أختي؟ هل كنتُ قاسيًا معها؟ لو كان أبي على قيد الحياة،

كيف كان سيتصرَّف؟ ماذا جرى لي؟ ما الذي يضايقني الآن؟

عاد ورمى بنفسه على السرير، مُحاوِلاً إغماض عينيْه كأنَّه يريد بذلك أنْ ينظُر إلى الداخل، داخلِه هو، أخذ نفسًا عميقًا، وسأل نفسه:

- ما الذي يُضايِقُني؟ وهل أخطأتُ في حقِّ ليلى؟ نظراتُ بلقيس، لماذا توجِعُني؟ حُزنُها لماذا يُربِكُني؟ صمتُها لماذا يشوِّشُ أفكاري؟ صمتُها عالٍ جدًا لدرجةٍ تُثير الصَّخَبَ والضجيج في داخلي، إنَّ صَمْتَ بلقيس مُزعِجٌ جدًا. حتى لو أنَّني أخطأتُ في حقِّ ليلى، فما الذي يمكنني أنْ أفعله الآن؟ كلُّ ما يُمكِنُني فِعْلُه هو الانتظار حتى تعودَ.

تقلَّبَ في فِراشه ولم يبالِ للمرَّة الأولى منذ صار شابًا بأناقةِ ثيابه أو خلع حذائه على أعتاب السرير المُقدَّس بطقوسه بالنسبة له، كان السؤال الذي خطر له مزعجًا جدًا، فجعلَه يتقلَّب:

- حين تَعُود ليلى...

ثم قاطعَ أفكارَه بسخريةٍ، تجَّسْدتْ على زاوية فمه شبحَ ابتسامةٍ:

- هذا لو عادتْ أصلاً!

ثم عاوَده القلق، فاحتمال أنْ تعود قائمٌ!

- لو عادتْ كيف ستتصرَّف؟

بدأ يفرك أصابعه بقلقٍ، وأحسَّ بضيقِ حذائه وهو يُكَرْمِشُ أصابع قدميْه مِن التوتُّر، لم يَجِدْ للسؤال جوابًا مُريحًا، فقرَّر تأجيلَه، لكنّه شعر ببعض الارتياح لِمَا توصَّل إليه مِن أسئلةٍ، على الأقل الآن يُمكِنُه أنْ يَجِدَ ما يناقش به بلقيس المُتعبِّدة في محراب الفَقد.

*****

كان عليٌّ في المطبخ يُعِدُّ الطعام، وكانتْ لِحْيتُه مُتقنَة الهيئة غريبةً كصوتِ الشكِّ في حضرة اليقين، لافتةً للنظر كالتعويذةِ على صدور المؤمنين، غيرَ ملائمةٍ كربطةِ عنقٍ فوق بيجامة لا تسرُّ الناظرين. شعر بحبَّاتِ العَرَق تتجمَّع تحتها وتهيِّج بَشَرَته الرقيقة، تساءل كيف تصبرُ الفتيات على الشَّعْرِ الطويل! ثم لمْ يصبِر فنَزَعَها، دون أنْ ينتبه إلى تلك العيون التي تُراقِبُه وقد شكَّتْ في أمره، لم يَرَ نظرة الظَّفَر التي لمعتْ

حين أزال اللحية طلبًا لبعض التَّهْوية، فأكمل عمله بنشاطٍ أكبرَ، حتى إذا انتهى مِن تحضير الطعام، لَبِس لِحْيَته وأسْرَج صوتَه الخَشِن، وخرج لتقديم الطعام للمجموعة، ريثما يُصلُّون العصر معًا، فهبَّ إلى مساعدته شابٌّ خَشِنُ المظهر فظُّ اللحية مُتوهِّج الصوت غليظُ النظرات، وخلال تقديم الطعام شعر بيد ذلك الشاب تتعمَّد مسح يده بلطفٍ، وشعر بعيونه تكاد تفتِكُ به، وابتسامةٌ غامضةٌ لا تُفارِقُه، شمَّ رائحةَ الشهوة تفوح مِن جسده، فارتبك قليلاً، ثم عاد إلى هدوئه وقد تسلَّح بنظرةٍ صارمةٍ.

في تلك الليلةِ وبعد صلاة العشاء، حينما خلد القاعِدون عن القتال للنوم، شعر بحفيفٍ يُداعِب فِراشَه الأرضيّ وسمع صوت أنفاسٍ تقترب مِنه، رفع رأسه فوجد ذلك الشاب يتذرَّع بأنَّه لم يجدْ مكانًا ينامُ فيه، وجاء إلى هنا لتقاسُم الفِراش معه، ويبدو أنَّه كان يطمع بأكثرَ مِن ذلك، إذ كان ينوي تقاسُم الليلة كلِّها مع عليٍّ، فما إنْ اندسَّ في الفِراش جانبه حتى شعر عليٌّ بأصابع الشابِّ تتحسَّسُ ظَهْره وأنفاسُه تقترب وتَثْقُلُ وتتلاحق، فابتعد بكلِّ جسده قليلاً، ثم أحسَّ بأصابعِ الأقدام تتسلَّقُ ساقيْه كثُعبانٍ

يلتفُّ على شجرةٍ، فحَبَسَ أنفاسَه وحدَّق في الظلام، وقد تفتَّحتْ حواسُّه كما تنبِّهُ النار القبيلة، فهبَّ واقفًا، وهو يقول:

- لا تُزعِجْني في نومي، أخبِرْني إنْ كنتَ لا تُجيد الثبات في الرُّقود.

- وهل تظنُّني مِن أهل الكهف؟! حتى هؤلاء كانوا يتقلَّبون في نوْمِهم! ما بكَ يا... رَجُل!

قال عبارته الأخيرة بسخريةٍ، حتى شعرَ عليٌّ بدوارٍ خفيفٍ وبدبيبِ القلقِ في صدره، فسكتَ كانقطاعِ الوَتَرِ مِن الكَمان، ثم حمل مِعطَفه وهَمَّ بالخروج، فقفز الشابُّ مِن فِراشِه وجَذَبه بسرعةٍ إليه، وحاصَرَه بساعديْه، وهو يقاومه بشدَّةٍ، بينما يحاول الشاب إبعاد وجهِه عن هذه الغُصون التي هيَّجَتْها ريح الحصار.

ثم جذبه إليه بقوةٍ وهو يقول هامسًا:

- اسمعيني جيدًا يا فتاةُ، أعرِفُ حقيقَتكِ، فلا تُنكِري ولا تُقاوِمي وإلَّا جعلتُكِ أيَّتها الجميلةُ الشقراءُ جُبْنةً شهيّةً لهؤلاء الفِئران في الخارج، هل تفهمين؟ والآن اهدئي وأخبريني بقصتك.

- لستُ فتاةً، أنا ذَكَرٌ أُقسِمُ بالله على ذلك، لكنَّ صوتي يكذِّبُني.

- حقًا؟!

نظر إليها نظرةً سَمِجةً، وهو يحدِّق في ملامحها، ثم قال:

- وجسدُكِ؟ هل يُكَـ...

- لا شأنَ لك بجسدي.

رفع حاجبه لهذه الجرأة، ودون أيِّ تعليقٍ جذبَ بنطال عليٍّ إلى أسفل بعنفٍ وهو يقول:

- لِنَرَ ماذا سيقول جسدكِ! هل سيصدِّقُني أم سيكذِّبُك.

تجمَّعت الدموع في عيون عليٍّ، وهو يشعر بمهانةٍ عظيمةٍ، حاول شدَّ بنطاله، لكنَّ الشابَّ كان قد بدأ يبحَثُ في أَرْضِه، أهي للبَذْرِ أم للزَّرْع! فلمَّا تبيَّن له أنَّ ما يراه قُطبًا سالبًا، يليق بمُوجِبه المُتحفِّز للالتقاء دفَعَه إلى الفِراش وهو يَغُضُّ صوته بيده، ويخنُق مُقاومته بجسده الثقيل، لم يكنْ يُبالي بالمُقدِّمات ولا بتفحُّصِ باقي العلامات، ولا باستكشاف

جغرافيّة الجسد المُنقلِب على ذاته، كان مُهتمًا فقط بشَحْن كهربائه جيدًا، وبسرعةٍ قبل أنْ يتنبه أحدٌ.

كان جاهزًا للانقضاض، وحينما أتقن استخدام صُنْعَ الله فيه كاملاً بلا نُقصانٍ وتمكَّن مِن طريقه نحو هدفه، غرزَ أداة حَرْثِه في ظلماتٍ ثلاثٍ، ودموع عليٍّ لا يُجفِّفُها سوى الرعب الذي أصابه مِن هذا الكابوس الذي كَسَرَ نَفْسَه، وحطَّم ذُكورَته بلا رحمةٍ.

حينما انتهى الشابُّ مِن إثباتِ ذُكورَته وإفراغِ فُحولتِه، انتزع بقايا جسدِه المُعلَّقة في جسدِ عليٍّ وقام سريعًا يلفُّ عليه ثيابه ومضى تاركًا إيّاه بين صرخةٍ مَكتومةٍ وحقدٍ دفينٍ وإهانةٍ كاملةٍ للإنسان فيه سواءً أكان ذكرًا أو أنثى، ولمَزيد احتقارٍ، ترَكَه نِصْفَ عارٍ كالخِرْقَة البالِيَة على الفِراش، فشدَّ عليٌّ غِطاءه وكوَّم عليه جسده وضغط على أوجاعه.

في اليوم التالي، ادَّعى المرض فلم يخرجْ وبَقِي في فِراشِه، لكنَّ الشابَّ جاءه ونزع عنه غِطاءه الذي تشرنَقَ داخِلَه، اقترب منه قائلاً باسترخاءٍ لَزِجٍ:

- كيف حال العروس اليوم؟ الليلة جهِّزي نفسَكِ لي وإلَّا فَضَحْتُكِ في المكان وتركتكِ لهم، وها أنتِ تريْنَ! لا أنثى بيننا وكلُّنا مُشتاقون لنكهةِ الأنثى في فِراشِنا الجافِّ.

خفق قلبُ عليٍّ بشدّةٍ، وبقي صامتًا وعيونُه مُنكسِرة نحو الأرض، ثم قرَّر في نفسِه أنَّ تلك الليلة هي أوَّلُ وآخرُ ليلةٍ، فجَمَعَ نفسَه وأجْمَعَ أمْرَه على الهرب بعد صلاة المغرب والقوم مشغولون بدرس الشيخ!

****

تجرُّد

كُنْ مَنْسِيًا لتحيا، لتَكونَ ذاتَك.

- يا للحماقة! يا للحماقة.

ثم ضحكتْ «أنا» بشدَّةٍ، وهي تَركُلُ بقدمِ العِناد حصى التحرُّر واليقين والوضوح التي تكسَّرتْ تحت أقدام «الأنا». وقفتْ «الأنا» المَشروخَة تحدِّق فيها ثم قالت:

- تضحكين؟ حماقة؟ أنتِ الحمقاء لأنّكِ لا تعرفين أنَّني أبكيكِ ولا أبكي غيركِ. أَبكي جهلكِ بنفسكِ، ما عُدْتُ أعرفُ مَن أنتِ، وماذا تريدين. متى ستفهمين أنَّنا توأمٌ، أنَّنا واحدٌ، وجهٌ وانعكاسُه في مرآة النَّفْس. أنتِ لستِ أنتِ! أنتِ أخرى لكنَّكِ لا تشعُرين.

- أرأيتِ كيف ينكسر الضوء في المَنشور ليصير ألوانًا بديعةً؟ هكذا أنا حين يَعْبُرُني الآخرون. فلماذا هذه الحفلةُ الحزينةُ كالمَأتم؟! اعترفي أنَّني «أنا» الواعيةُ بكلِّ تناقُضاتي وتداخُل مُقوِّماتي وتأثيرِ الآخرين فيَّ، أجملُ وأبهى وأكثرُ إشراقًا وانسجامًا مع المجتمع.

- لكنَّكِ ستعيشين وتموتين وأنتِ مُجرَّد نسخةٍ لا تفرُّدَ فيها، الجوهرُ والتفرُّد والكينونة الحقيقية في «الأنا» حين تكون يومًا كما تُريدُ وكما يُناسِبُها وكما تتصالحُ مع ذاتها قبل الآخرين. افهمي: ليس مُهمًا أنْ تُقنِع «أنا» الآخرين أو تُفْهِمَهُم أو تُرضِيهم، المهم أنْ تظهر «الأنا» قبلَها مُكْتَفِيَةً بذاتها واعيةً لإمكانياتها واثقةً بقدُراتها.

على النَّفْسِ قبل أنْ تقول «أنا» أنْ تَعِيَ فيها حقيقة «الأنا»، وإلَّا فإنَّ

الحربَ سِجالٌ، والخاسرُ الوحيدُ هو الذات. لذا لن أستسلم.

- لن تستسلمي؟! بعد كلِّ ما رأيته وجرى؟ لقد دمَّرتِ بإلحاحِكِ ليلى أو عليًا، لا يهمُّ. لقد أفسدتِ على بلقيس حياتها، وضيَّعتِ مِن خضر حبيبته ويكاد الآن يَفْقِدُ سُمعَته. ماذا بعد؟

- لابُدَّ لكلِّ سلامٍ مِن حربٍ تَسْبِقُه، لا انتصاراتَ تُسجَّلُ إلَّا بحربٍ تَشتعل. ذاهبةٌ لأُكْمِلَ وُضوحي.

- انتظريني، لن أتركِكِ للنَّفْسِ وحدكِ تحتلّين مَكاني.

- لن أحتلَّ مكانكِ، يمكنُكِ التحالُف معي ما سمحتِ لي بأنْ نتحالف ولا نسمح بدخول الغريب بيننا.

- صعبٌ، كلَّما حاولتُ فشلتُ، أنتِ تعرفين ضعفي وشدَّة حاجتي للآخر في حياتي، أنتِ تعرفين وتشعرين بخوفي الذي يتملَّكُني، أنتِ تعرفين أنني سريعةُ الإغراء والإغواء. هكذا أنا لا أتغيَّر، انظري لهذا العالَم الـ...

- كَفى! بل يمكنكِ أنْ تبذُلي جهدًا. حتى ننسجم معًا، أو نتوحَّد لا نحتاج لحربٍ، نحتاج فقط لقليلٍ مِن الوَعْي والمُحاسبة. أنا عائدةٌ لبثِّ الرسائل

مِن الداخل.

- حسنًا، وأنا عائدةٌ لاستقبالِها مِن الخارج. لكنْ، سأعترفُ لكِ بشيءٍ: كنتِ ذكيةً بلا شكٍّ حين استعنْتِ بالضمير وحين ظهرتِ في المرآة، وكانتْ فكرةً عبقريةً أنْ تتكشَّفي مِن خلال العرض المسرحيّ أو حديثِ تداعي الأفكار الحُرِّ. تفوقتِ عليَّ في هذه، نجاحٌ يُحْسَبُ لكِ لا أُنكِرُه.

ثم تنهَّدتْ بارتياحٍ، فربَّتَتِ «الأنا» على كتفها الملوَّث بالآخرين، فنَفَضَتْ عنها بعض الغبار وقالت لها:

- وأنتِ كنتِ شريرةً ذكيةً حين استعنتِ بالخوف والعناد لتُسيطِري، لكنني افتخرتُ بكِ حينما تحالفتِ معي لأجل بلقيس، هي لا تستحقُّ هذا الضياع.

- نعم، كان لابُدّ أنْ أنسحب إلى الظلِّ قليلاً، لينقشع الضباب عن وعيها.

- لكنَّكِ بالمقابل سيطرتِ على خضر.

- واحدةٌ لي وواحدةٌ لكِ! ليستْ كلُّ النفوس سواءٌ.

- لكنَّ الحرب مُستمرَّةٌ حتى تستسلمي.

- أو تفهمي.

*****

«٤»

في السطور القادمة، ستتعلَّمُ كيف تَصدُّ هجماتِ الآخرين نحو شِباكِكَ فتصطادَها قبل أنْ تصطادكَ، أو على الأقل تمرِّرُها على مركز الوعيِ عندكَ قبل أنْ تختلط بفكركِ ومشاعركِ، فتلوِّنَ صوتكَ وتلوِّثَ مَنطِقكَ، كما بلقيس وخضر.

وفي سطورٍ أخرى، سيقَعُ الأبطال في الفخِّ،

سيكونون عُرضةً لهجومٍ فكريٍّ نبيلٍ يختلس مشاعرهم ليُعيدَها إليهم مُرتَّبةً وناضجةً وواضحةً أكثر، كما ليلى.

اختفتِ المسافات، وتعطَّلتْ عقارب الساعات وبلقيس تجلس خلف نافذتها كلَّ يومٍ تُراقِب الطريق، فلا طارقُ القلبِ حَضَرَ ولا طارقُ الروح ظَهَرَ، بقي خضر بعيدًا، وبقي عليٌّ مُختفيًا لمدّة شهرٍ لا تعرِف عنهما شيئًا، لكنَّها في تلك الفترة شعرت ويا للغرابة! براحةٍ لذيذةٍ، لأول مرةٍ تشعُر بها بعيدًا عن خشبة المسرح، لعلَّها كانتْ على خشبة المسرح تَجِدُ ذاتها ولذَّاتها بين الشخوص التي تتقمَّصُها والأرواح التي تتلبَّسُها، كانتْ رحلةُ بحثٍ عن «الأنا» فيها بين الوجوه رحلةً شاقّةً طويلةً كرحلة الشرنقة قبل أنْ تصير فراشةً، لكنَّها الآن بعد تلك المواجهة مع «الأنا» والآخر الغريب فيها، تشعر باستقرارٍ وبأنَّها تفهَمُ ذاتَها أكثر، تشعر ببعض الرضا عن نفسها والانسجام مع ما حولها، حتى حدّةُ نظراتها لمعاوية

خَفَّتْ، وعاد الكلام بينهما أرْطَبَ مِن ذي قبل رغم بعض الشِّجاراتِ اللفظيّة.

رنَّ جرس الهاتف، فقامتْ وقد علَّقتْ أفكارها على مِشْجَبِ الذاكرة، لتُجيبَ على إلحاح الهاتف، وكم تفاجأتْ بالصوت:

- خضر!

استمعتْ إلى الصوت ودمعةٌ تَتَدَحْرَجُ على خدِّها، رغم خفَّة تلك الدمعة إلَّا أنَّها أسقطتْ مِن قلبها همًا ثقيلاً، هزَّتْ رأسها، وقالت له أخيرًا:

- لا بأس، أنتظركَ.

لم تَمْضِ ربع ساعةٍ حتى كان خضر يطرق بابَ بيتِها وقلبَها معًا بطَرقاتٍ خفيفةٍ، وهي تستقبله بابتسامةٍ مُرهَقَةٍ، لكنّها واثقةٌ.

كان قد رتَّب الكثير الكثير مِن العبارات المُنمَّقة ليَحقِن بها لاوعيها، ويُزيل عنها عزفًا منفردًا تغشَّى قلبها، لكنَّها تحصَّنتْ جيدًا هذه المرة، فابتسمتْ وهي تهزُّ رأسها بأسفٍ قائلةً:

- لا تُسمِعْني صوتكَ، حدِّثْني بقلبكَ وسأفهمُكَ بعقلي، أَعِدُكَ.

- لم أفهم، كيف أفعل؟

- فقط دعْ روحك تهمسُ لي وسأَعِي همسها، دعْ عينيْك تُترجِمان وسيردُّ قلبي. كلماتكَ يا عزيزي لم تَعُدْ تؤثِّر فيَّ، لأنَّ روحي ببساطةٍ ليستْ فارغةً لتكون صدًى لصوتكَ، فالصدى لا يتردَّدُ إلَّا في الفراغ، وأنا الآن ممتلئةٌ بي وحدي.

ابتسم وقد هزَّ رأسه باستسلامِ العارفين، وألقى بأسلحتِه جانبًا وتجرَّدْ، ثم قال من قصيدة لنزار:

- بلقيس يا معشوقتي حتى الثُّمالـ..

قاطعتْه بضحكةٍ ساخرةٍ صافيةٍ رقيقةٍ، ثم قالت:

- كانتْ هذه آخر محاولةٍ للتأثير عليَّ، لا تَسْتَعِرْ شِعرًا، لن يَسْتَعِرَ الحبُّ في قلبي هكذا، كنْ أنتَ ولكنْ بعيدًا عنّي أنا، لا تَسْتَمِدَّ حضورك مِن وجودي.

- بلقيس، تعرفين قصة بلقيس ملكة سبأ مع النبيِّ سليمان؟ كوني لي

مثلها.

ثم اقترب منها وجثا على ركبتيْه عند ساقيْها، وقال بضَراعةٍ:

- الملكة بلقيس تَلاعَبَ بها النبيُّ سليمان، لكنَّه في النهاية فَعَلَ ذلك لأجلها، لقد اشتركا في المُلك والحُكم بعدها، كان يجب أنْ يُخفِيَ عنها لتتعرَّض لتلك الصدمة الفكريّة الكبيرة، حتى تُعيد التفكير بعيدًا عن الأحكام المُسبَقة الراسخة في النفس. يا بلقيس، أغلبُ الناس، ينظرون في المرآة ليتأكَّدوا مِن أنَّهم لم يُصابوا بالتغيير، التغيير مُفزِعٌ لأغلب للناس، وهؤلاء الأقرب إلى صدمة التغيير المفاجئ والانقلاب الكامل، ففي حالِ لاحظوا تغييرًا خافوا مِنه ولم يتمكَّنوا مِن رَفْضِه. لذا كان عليَّ أنْ أفعلَ ما فعلتُه لأجلكِ ولأجل مشروعنا المُشترك.

- لماذا لا نَقْلِبُ المرآة؟ لماذا لا نَعْكِسُ الصورة؟

قالتْ بهجومٍ مُرتَدٍّ، لتحميَ نفسها مِن شِباكِه:

- لماذا لا تكونُ أنتَ مَن يخاف مِن التغيير؟

- أنا؟ آخر مَن يخاف التغيير أنا، كلَّ يومٍ أنا في شأنٍ!

- هل تظنُّ نفسكَ إلهًا؟

- إلهُ المسرحِ العربيِّ لو أحببتِ! لا أحدَ يتفوَّق عليَّ في إبداعي، كلماتي تَسحِرُ وصوتي يؤثِّر ومذهبي نادر. أنتِ تُدرِكين، يقينًا لا شكًّا، أنَّني لا يتفوَّق عليَّ أحدٌ، رأيتِ كيف توصَّلتُ إلى قوّة الأصوات وسِحْرِ تأثير الكلمات.

قالتْ بجفاءٍ وبُرودٍ:

- لم تَسْحَرْني ولم تؤثِّرْ فيَّ.

- أواثقةٌ أنتِ؟

- خضر، اسمعني جيدًا، يُضايِقُني مِنكَ غُرورُك هذا جدًا، يُضايِقُني مِنك أنكَ ما لمْ نصفِّقْ لكَ تعتبِرُنا حمقى ولا نفهم في المسرح شيئًا.

- مَن أنتم؟ هههههههههههههههه

- خضر، كُفَّ عن هذا.

قالتْها برجاءٍ مُلتاعٍ، فردَّ عليها بحَيْرةٍ:

- هل أزعجتُكِ يا جميلتي؟

- أنتَ عبقريٌّ، أنتَ ذكيٌّ، أنتَ مُميَّزٌ، لكنْ لا يعني كلَّ ذلك أنْ تغيِّب غيرَك لتُشرِق! لستَ مضطرًا أنْ تَنْفي نجاحي لتُثبِتَ نجاحك، للأدبِ سماواتٌ وأفلاكٌ ومداراتٌ، والمائدة تتَّسع الجميع.

- كلُّ هذا لأني قلتُ لكِ إنك صدًى لصوتي؟!

- أنتَ لا ترى نفسكَ، أنتَ تُهاجِم كلَّ كاتبٍ شابٍّ ينجَحُ ليَفْشَل.

- ما هذا الكلام؟ ما هذه التهمة؟! بلقيس ماذا تظنينني؟ أنا أفضلُ مِن أنْ أُحَارب أحدًا، أنا ناقدٌ موضوعيٌّ.

- الناقد الموضوعيُّ، لا يُهاجِم الناجحين فقط، بل يأخذُ بيد الضعفاء أيضًا.

- كُفِّي عن هذا الهراء، يا لحماقاتِ النساء! لا تفكِّري، فهذا الرأس الجميل لا يَحتَمِل عِبْء التفكير.

غضبتْ جدًا مِن كلامه، فصَفَعَتْه بقولها:

- أين عليٌّ يا خضر؟

قالتْها وهي تحبس دموعها، وتَغُضُّ صوتها، وتترفَّع ببصرها عنه:

- كان معكَ آخر مرةٍ قبل أنْ يختفي، ماذا قلتَ له؟ ماذا قال لكَ؟ تذكَّرْ أيَّ شيءٍ يمكِّنُني مِن الوصول إليه.

تنهَّد وانسحبَ إلى الأريكة، صمتَ طويلاً، حتى أزعَجَها صمتُه الضبابيُّ، فقالتْ له بحدَّةٍ لم يَعْهَدْها مِنه:

- تكلَّم الآن أو اصمتْ للأبد!

- حسنًا، تكلَّمْنا عن...

- ها، أسمعُكَ قلْ، شَنِّفْ أُذني، أَطرِبْ قلبي بالمصيبة التي تَطْرُقُ الأبواب، تكلَّمْ!

- لماذا تحوِّلين الموضوع وتَقْلِبين الحديث؟

قالها بغضبٍ شديدٍ وهو يهمُّ بالخروج، لكنَّها أوقَفَتْه وقالتْ:

- لأنَّ هذا الرأس الجميل لا يَحْتَمِلُ التفكير، فها هو بدل أنْ يفكِّر وحده

ويشطح بخياله يسألُكَ أنتَ، وللمرَّة الأخيرة، أين عليٌّ يا خضر؟

تنهَّد ثانيةً وقد شعر بالحصار، جاء يُصالِحُها لكنَّها تُصِرُّ على أنْ تخسره، قال بلامبالاةٍ:

- تكلَّمْنا عن الشابِّ في توأمك، لا يُثْبِتُ وجوده إلَّا بحربٍ، سألَني عن داعش، أخبرتُه عن علاقتي ببعضِهم، عرَفْتُهُم عن طريق سكايب، كنتُ بحاجةٍ للتعرُّف على أفكارِهم أكثر، لأعرفَ كيف يَستدرِجون عقول الشباب ويَسْحَرونهم، لم أتوقَّع أنْ يفهم الحرب بهذه الطريقة، قصدتُ أنْ تَموت فيه ليلى أو عليٌّ، حين طلب أنْ يتَّصل بهم، ظننته يريد أنْ...

- أنتَ... أرسلتّ... توأمي... لداعش!!!

- سيَعُـ...

حاول أنْ يتكلَّم، لكنها أسكتَتْه بيدها، ثم قامتْ ودارتْ حول نفسها، تلاحقتْ أنفاسُها هلعًا، ثم هبطتْ كأرضٍ شقَّها زلزالٌ نصفُها على الأريكة ونصفُها يكاد يقع على الأرض، وضعتْ رأسَها بين يديْها، ثم نظرتْ إليه طويلاً بيأسٍ كيأسِ الوطن مِن الخائنين.

طردتْه خارج بيتها، وهُرِعَتْ إلى الهاتف تُكلِّم معاوية.

*****

مرَّ شهرٌ آخر، تأرجْحَ فيه الزمان وذَبُلَتْ على بابه الأمنيات، توقَّفتْ بلقيس عن عُروضِها المسرحيّة، وتوقَّف معاوية عن عناده الطويل وشجاره الدائم معها، كان يبحث عن طريقةٍ يَصِلُ فيها إلى عليٍّ، وكانتْ بلقيس تُعيدُ تفكيرها في كلِّ شيءٍ حولها، لازمت النافذة أو مرآة غرفتها أغلب الوقت.

كانتْ لا تتوقَّف عن مدِّ بصرها للطريق، لعلَّ توأمها يظهر فجأةً، وكانتْ تُراقِب المرآة تنظر فيما هو أبعد مِن ملامحها فيها، لعلَّها تلتقي حقيقتَها المجرَّدة مرةً أخرى.

- هذه المرآة مُتَّسخةٌ جدًا طوال الوقت، ضبابيةٌ ولا أرى مِنها جيدًا.

هذا ما كانتْ بلقيس تقوله في كلِّ مرةٍ تحدِّق فيها في المرآة، تمسَحُها بقوةٍ وتنظر في ملامحها، فتشعر بضيقٍ، كانتْ مرآةً صامتةً، أو كاذبةً

غيرَ سِحريةٍ كمِرآتِها في المسرح، كلَّما نظرتْ إلى هذه رأتْ فيها أخرى غيرها، أخرى صنَعَها آخرون، أخرى لا يمكن أنْ تقول لها: كيف حالكِ يا أنا؟!

وقفتْ أمام المرآة تمسَحُها هذه المرَّة، وهي تحدِّث نفسَها بضيقٍ شديدٍ، كانت المرآة نظيفةً لامعةً، لكنَّها كلَّما حدَّقتْ فيها، شعرتْ بأنَّ الرؤية مُشوَّشةٌ، مَسَحَتْها ثانيةً، ثم أعادت النظر، ثم ثالثةً، ولا شيءَ تغيَّر:

- لماذا هذه المرآة اللعينة، لا تَنْظَفُ؟ مرآتي في المسرح، كانتْ نظيفةً طوال الوقت، كنتُ أرى فيها نفسي جميلةً أنيقةً رقيقةً، لكنْ هذه! ما أبشَعَني فيها! إنَّها غير مصقولةٍ جيدًا، رديئةُ الصُّنع، أبدو فيها كمُهرِّجٍ، تُشبِه مرايا الملاهي، التي يخدعون بها الأطفال.

ثم عادت للنظر فيها:

- كم أبدو قبيحةً فيها، تذكِّرُني بخضر وبخِداعه لي، تذكِّرُني بعليٍّ، كلَّما نظرتُ فيها رأيتُ عليًا، كلَّما نظرتُ فيها تذكَّرتُ معاوية. مرآتي في المسرح لا أنظر فيها ولكنني أشعر أنني أنظر مِن خلالها كنافذةٍ للرُّوح.

تبًا لكلِّ هذا! لقد سئمتُ.

شعرتْ بغيظٍ شديدٍ، وهي تحدِّق في المرآة فرَمَتْ القماش بعيدًا، وأمسكتْ بصندوقها المُصدَّف وقذفت المرآة به فتهشَّمتْ قطعًا صغيرةً، وحينما هدأتْ أمسكتْ بقطعةٍ عن الأرض، حدَّقتْ فيها وهي تقول لنفسها:

- مَن أنا؟ جسدٌ أم ظلُّه؟ وجهٌ أم انعكاسُه في المرآة؟ لماذا أشعر أنني لا أفهم أحدًا؟ أكان عليَّ أنْ أفهَمَني أولاً؟ لأعرف مَن أكون؟ طوال الوقت كنتُ حريصةً على رضا الآخرين عني، وحبِّهم لي، طوال الوقت حرصتُ أنْ أكون كما يرغبون. هل أنا بلقيس كما ربَّتْني أُمّي؟ أم بلقيس كما أرادها خضر؟ أم بلقيس التي تَحْسُدُ توأمها على جرأةٍ تَفتَقِدُها؟ مَن هي بلقيس الحقيقية؟ ماذا أريد؟ وماذا أحبُّ؟ وماذا أكره؟ على فكرة! أنا لا أحبُّ القهوة، كان ذلك فقط تأثير خضر الثقافيّ عليَّ، طوال عمري أحبُّ الشاي بالليمون أكثر. لكنني أحبُّ المسرح، لكنَّني لن أعود إليه، خضر حَرَمَني مِنه.

ثم هتف بها همسٌ غاضبٌ:

- حتى الشيء الوحيد الواثقة مِن حبِّكِ له، أثَّر عليكِ خضر فيه!

- عليَّ أنْ أعرف ما أريده وما أحبُّه حقًا وأفعله، لن أسمح لأحدٍ بالتأثير عليَّ، عليَّ ألَّا أذبُل بعيدًا عن المسرح، أنا سمكةٌ بحرُها المسرح.

تنهَّدتْ بقلقٍ ثم قامت تُلَمْلِمُ قِطَعَ الزجاج المُتناثِر وتنظِّف شَذَراته الدقيقة، حينما رنَّ جرس الباب، فتركتْ ما بيَدِها، فالجرس يَستدعيها إذ لا أحدَ غيرها في البيت في هذا الوقت.

فتحت الباب، وهي تُزيل زجاجةً صغيرةً تؤلِمُها في باطِن يَدِها، ثم رفعتْ نظرها فتجمَّدتْ مكانها كشجرةٍ ثابتةٍ لا تشعُر بشيءٍ، لكنَّها تنبِضُ بالحياة.

*****

همستْ:

- عليّ!

ثم بكتْ، ثم هتفتْ:

- عليّ!

ثم دارتْ حول نفسها، ثم عادتْ تنظر إليه، وتمسح خدَّه بباطن كفِّها الذي تَنِزُّ مِنه الدماء، ثم ضحكتْ، ثم احتضنَتْه وهي تَضِجُّ بالبكاء، وتَنْضَحُ بالأنين:

- عليّ!

كان صامتًا ساكنًا كأبي الهول في وجه الشمس والريح، كان كدميةٍ خشبيةٍ باردةٍ، قديمةٍ ومُكسَّرةٍ، عيونُه جامدةٌ إلّا مِن انكسارٍ حزينٍ. نظرتْ إليه بلقيس فرأتْ آثار دماءٍ على وجهه، فسألتْه بفزعٍ:

- مِن أين جاءت هذه الدماء؟

فلم يتمالكْ أنْ ابتسم رغمًا عنه، قائلاً:

- مِن يدكِ.

نظرتْ إلى يدها، وقد نسيتْ أمْرَ المرآة، مسحتْ خدَّه بإصبعها، ثم

أخذتْ يديْه بين يديْها، وقالتْ له:

- حمدًا لله على سلامتك. لديَّ الكثير الكثير لأخبركَ به، لكن الآن تعال لترتاح ولتنام قليلاً. أهلاً بكَ في بيتك.

ثم حضنتْه بلهفةٍ، بمشاعرِ أمٍّ ضاع وليدُها ثم وجدتْه، أو بقوّةٍ كما تحتضن عنقُ الزجاجة غطاءها.

قالتْ له وهو يتوجّه إلى غرفته:

- سأكلِّمُ معاوية، سيفرح كثيرًا بعودتك، إنه يسألني عنكَ دائمًا يقول لي: هل عاد عليٌّ؟ يناديك بعليٍّ.

كانت الفرحة تقطُر مِن ملامحها ندًى أعاد لوجهها نضارته.

التفتَ إليها عليٌّ وقال:

- أنا ليلى ولستُ عليًا، ناديني ليلى أرجوكِ.

كان صوته مهزومًا، وأكتافه مُتهدِّلةٌ، استغربتْ بلقيس مِن كلِّ ذلك، لكنَّها لم تهتمَّ، كانتْ بحاجةٍ للفرح، لقد عاد ولا شيءَ آخر يهمُّ الآن.

تمدَّدتْ ليلى (**اسمحوا لي أنْ أناديَها ليلى الآن، حين أتحدَّث عنها مادام هذا طلبُها الوحيد الذي طلبتْه مِن بلقيس حين عودتها، رغم أنني حتى اللحظة لا أدركُ السبب في انقلابِها المُفاجئ على عليٍّ داخلها، ولا أعرف للحظة الأفكار التي تداخلتْ في عقلِها فغيَّرت قناعاتها، لكنْ بلا شكٍّ، كلُّكم مرَرْتُم بهذا الموقف، لكلٍّ مِنّا مدخلُ إقناعٍ يختلف عن الآخر، يتدخَّل فيه التجربة والثقافة والشخصية، هذا المدخل بابٌ خلفيٌّ نحو اللاوعي، فحتى تُغيِّر الوعي لابد أنْ تُسيطر على اللاواعي أولاً، حتى تغيِّر»أنا« السطحيّة فيك يجب أنْ تدرك «الأنا» الكامنة في أعماقك.**)

إذنْ، تمدَّدتْ ليلى على سريرها، بعد أنْ أغلقت الباب جيدًا، طلبًا

للانعزال، فهي بحاجةٍ لاستراحةِ محُارِبٍ قبل أنْ تُواجِه المجتمع، تلتقطُ أنفاسَها بعد تلك الحرب الشرسَة في إثبات الذات، تلك الرحلة الخاطئة، فالتوقيت السيِّء دومًا يقتُل الأهداف، أدركتْ أنَّ عليها منذ البداية أنْ تبحث عن ذاتها قبل أنْ تُثبِتَها.

هذا ما كان يدور في ذهنها تلك اللحظة بكلِّ وعيٍ.

مازالتْ تَحِنُّ إلى ذلك الشهر الذي قَضَتْه مع الرجل العجوز، بعد هُروبِها مِن داعش.

«لمْ أتصوَّر أنَّ الهروب مِن داعش أصعب مِن الخروج مِن جهنَّم الإله! كانتْ مُطارَدَةً عنيفةً، كغزالٍ يُصِرُّ صيَّادُه على اقتناصه، لا شكَّ أنَّ أكبر خطأٍ ارتكبتُه أنَّني حاولتُ الهرب، فالموت أحيانًا هروبٌ رحيمٌ مِن جحيمِ أنْ يموت فيكَ كلَّ يومٍ شيئًا فتُقيم عليه عزاءً، ما أصعبَ أنْ يبكي بعضُكَ على بعضِكَ!»

انهارتْ مُقاومتُها التي استمرَّت لمدّة عشرةِ أيامٍ، وهي تختبئ مرّةً بين الجِبال، ومرّةً بين الأهالي، لكنَّهم في كُلِّ مرةٍ كانوا يَعثُرون عليها، ذلك

الشابُّ اللعين أفسدَهُم عليها فجَدُّوا في طَلَبِها، حتى أمسكوا بها بعد عشرةِ أيامٍ، وهي تأكُلُ العِنَب في إحدى القِطَعِ المُتجاوِرات، فقَادُوها نحو كبيرِهم ذاك، وقد انكشفَ أمرُها لهم، بظنِّهم أنَّها فتاةٌ تدَّعي أنَّها شابٌّ، حاول الشيخ طمأنَتَها، بأنَّها ستكون في عُهْدَته لو قَبِلَتْ بشروطِه التي كادتْ تُوافِق عليها، فها هو الشيخ يخيِّرُها بين أنْ تموت في كَنَفِه زوجةً، أو في كَنَفِ الشباب سَبِيَّةً.

اختارت الموت المُؤجَّل، زواجُها مِنه يحتاج إلى ترتيباتٍ، على الأقل لآخر النهار، بدل أنْ تصير سَبِيَّةً والآن أمام الجميع، وبدأتْ بتنفيذ خطَّةٍ جديدةٍ لموتٍ جديدٍ، لكنَّها ستجعَلُه هذه المرّة موتًا شهيًا كاملاً، لو اضطرُتْ إلى ذلك.

عُقِدَ القِران بين المغرب والعشاء، وتركوها وحدَها في غرفته، تنتظره بعد صلاة العشاء ليَخْتَلِي بها، كانتْ قد حصلتْ على سلاحٍ أبيضَ أثناء هروبها، فطَعَنتْ به نفسَها في بطنِها وتركتْ لنفسها لذَّة الشُّعور بالتحرُّر مِن كلِّ شيءٍ.

حينما أفاقتْ، كانتْ في بيْت شَعْرٍ، مع وجعٍ شديدٍ في الخاصرة، وتعبٍ في الجسد، وثِقَلٍ في القلب، وخوفٍ مِن المجهول.

*****

بقيتْ ليلى عند العجوز يُطعِمُها مِمّا يأكل، ويُغطِّيها مِمّا يلبس، أسبوعًا في الفِراش لا تتكلَّم ولا يَسألُها، لا تَطلُبُ ولا يَمنعُها، لا تَعِي ما حولها ولا يُوضِّح لها.

تركَها حتى استدار وجهُها وعادتْ لجسدِها حيويَّتُه، فبدأ يوزِّع ابتساماته في مرمى بصرها، وبدأتْ تشعُرُ معه بالأمان، حتى في ليلةٍ، استيقظتْ فسمِعَتْه يَنتحِبُ بخِفّةٍ كهديلِ حمامٍ، يستريح ليتنهَّد، ثم يعود للنحيب الخفيف كمطرِ الخريف.

قامتْ مِن فِراشها، يقُودُها قلبُها الذي رقَّ له وخاف عليه، اقتربتْ مِنه، احتارتْ كيف تفعل ليتوقَّف، هو موجوعٌ ولا تعرِفُ السبب، لكنَّها لا تريده أنْ يتوجَّع، فالوجع لا يحتاج أنْ تعرف الآخر كي تتعاطفَ مَعه،

هو شعورٌ إنسانيٌّ بَحْتٌ يُصافِحُ صَداه أوجاعكَ، لعلَّها أنانيةٌ أنْ تُسْكِتَ الموجوع، لتَرْدِم معها أوجاعك.

حطَّتْ يدُها على كَتِفِه بهدوءٍ شديدٍ بعد تردُّدٍ شديدٍ، كريشةٍ هبَطَتْ لتَرْفَعَ نظرك إلى أعلى تبحثُ عن صاحبتها فلا ترى إلا السماء فتبتسم وتقول يا ربِّ.

حينما شعر براحَةِ يَدِها على كَتِفِه، التفَتَ نحْوها، وهو يَمْسَح دموعه بطرف كُمِّه، ويحاول بصوتِه المَزكوم بالألم، أنْ يسألها عن سبب استيقاظها، كان خوفُه عليها حقيقيًا، حتى إنِّه رفض تجاهل كلَّ شيءٍ سوى أنْ يُمسِكَها مِن يدها كما يقود المُبصِرُ الضرير، نحو فِراشها، ثم غطَّاها جيدًا، وابتسم لها وقام لينام.

في الصباح الباكر، لم تَجِدْه في مكانه، تتذكَّر أنَّ الشعور بانعدام الأمان أصابها وقتها، والقلق عليه فَتَكَ بها، فقامتْ مِن فَوْرِها لتفعل أيَّ شيءٍ، المهم أنْ تُغادِر مكانَها، تهرب، تبحث عنه، تجدُ مَن تستظلُّ به، فقد خافتْ مِن البقاء وحدها، رأتْه مِن بعيدٍ يرعى غنمه، فهُرِعَتْ إليه، وحين

وصلت استغرب وسألها مُندهشًا لماذا لمْ تبقَ في البيت.

لأول مرّةٍ يسمعُ صوتها حين قالت له كلمةً واحدةً:

- خائفٌ.

ثم أطرقتْ خجلاً مِن نفسها وخوفها، فقال لها:

- لا تخافي يا ابنتي، صحيحٌ عجزتُ عن حماية أحبَّتي، لكنني بإذن الله سأبذل جهدي لأحميكِ، لا تخافي فالمكانُ آمنٌ لا يصل إليه أحدٌ.

بقيتْ صامتةً، لكنَّها جلستْ بجانبه، تستمدُّ مِن دفء روحه بعض الأمان، شعرتْ لأول مرّةٍ في حياتها أنَّها بحاجةٍ لحماية أحدِهم لها، نظر إليها مبتسمًا وهو يقدِّم لها مِن طعامه، فتناولته بابتسامةٍ شاكرةٍ.

- أخبِرْني بما جرى، كيف وصلتُ إلى هنا؟

- كنتُ أرعى الغنم، وفقدتُ نعجةً مريضةً، فأعدْتُ الغنم إلى البيت، وخرجتُ بحثًا عنها، فوجدتكِ.

لم تتمالك أنْ ضحكتْ بشدّةٍ، قائلةً:

- بحثتَ عن نعجةٍ فوجدتني أنا! وهل وجدتَها لاحقًا؟

- نسيتُها، حينما رأيتُهُم يرمُونَكِ في العراء، وقد تكفَّنَ جسدُكِ بالأحمر بدل الأبيض. انتظرتُ حتى رحلوا فحملتُكِ إلى البيت، بقيتِ فاقدةَ الوعْي خمسةَ أيامٍ كاملةً أرعاكِ فيها، ونسيتُ أمْرَ النعجة.

سكتَ قليلاً ثم قال:

- تلك النعجة كانتْ لكِ ككَبْشِ النبي إسماعيل، افتداكِ الله بها ليُنْقِذكِ مِن الموت.

نظر إليها، فلاحظ علامات الاستفهام على وجهها، سألها:

- تعرفين قصة النبي إسماعيل مع الكبش؟

- لا، ولكنني أعرف قصة الخضر مع النبي موسى.

هزَّ رأسه، لا شيءَ يستفزُّكَ للحديث كطُولِ صَمْتِ مُحدِّثكَ، كان يريدها أنْ تتحدَّث وحدها لو رغبتْ، لم يكن ليضغط على جروح روحها وهو الذي شَفى جروح جسدها، فصمتَ.

قالتْ له بعد برهةٍ:

- اسمي عليٌّ.

نظر إليها مُستنكِرًا كأيِّ عجوزٍ تغلِبُه فِطرتُه في حُكمِه على طبائع الأشياء، فبثَّها حيرته مُغلَّفةً في سؤالِ عجوزٍ يملِكُ مَكْرَ الثعالب وحِنْكةَ النَّحْل، واتَّساع رؤية البوم:

- يبدو أنَّ أباكِ كان يشتهي ولدًا، ليُطلِق عليك هذا الاسم.

- كلَّا، أنا ولدٌ فعلاً!

شمَّ رائحة الغضب والاحتجاج في كلامها، فرفع حاجبيْه دهشةً وقد أحْجَمَ عن الكلام، فقد شعر أنَّه بحاجةٍ ليفهم أكثر كي يُجيدَ الحديث أكثر، يَكْبَرُ المرء، بل ويستقبل الموت، وهو دائمًا سيَجِدُ شيئًا يحتاج لفهمٍ آخر. في أعماقِه استقبلها كأنثى، شعر بهشاشتِها ورقَّة طِباعِها، ومَخاوِفِها الأنثوية، فأين الخلل يا ترى؟

هكذا كان يسأل نفسَه وهو يُراقِبُها بعينِ صقرٍ لا تُخطئ رؤية حبَّة خردلٍ مِن شاهقٍ.

بقي الحال على ما هو ثلاثة أيامٍ بعدَها؛ تستيقظ لتَلْحَقَ به وهو يرعى غنمه، يتبادلان الحديث متى صمتتْ أصواتُهُما الداخلية، حتى سألته مرّةً:

- أنتَ تعرفُ قصص القرآن.

هزَّ رأسه بنِصْفِ نَعَمْ، فأردفتْ:

- حدِّثْني عن قصة الخضر والنبي موسى.

- قصةٌ طويلةٌ عميقةٌ، فعَنْ أيِّ جانبٍ تريدين الحديث؟

- عن العِبْرة فيها.

- لكنني لستُ أستاذًا.

- ماذا تقصد؟

- نتحاورُ لنفهم أكثر، لكنني لا أحبُّ أنْ أُمْلِيَ عليكِ ما أعرفُه، تخبرينني بما عندكِ وأخبرك بما عندي، فلا يجوز في العِلْمِ أنْ تأخذَ طوال الوقت ولا تُعطي، ما دُمْتَ قادرًا على الإعطاء.

- لكنني فعلاً لا أملك أنْ أعطي شـ...

- بل يمكنكِ، أنْ تستمعي جيدًا، فتأخذُي مِنّي أفكاري، ثم تُعيدِينَها لي بسؤالٍ ينبِّهُني لِمَا غاب عني، ويفتح مَسامَ فكري لهواء الأفكار الجديدة المُنعِشة، ساعتها، أنتِ تُعطين بقدر ما تأخذين.

- قلتُ لك أنا شابٌّ اسمي عليٌّ!

- لا بأس، لنَضَعِ الأسماء جانبًا الآن، ولْنَضَعِ التصنيفات جانبًا، يكفيني أنك بشرٌ.

- حسنًا.

*****

يا له مِن رَجُلٍ ماكرٍ،لابُدّ أنْ أزوره ثانية مرةً أخرى، كيف استطاع أنْ يستدرج إنسانيتي ويُحيِّدَ ذُكورتي أو أنوثتي ببراعةٍ هكذا! لأحبَّه أكثر، أحببتُه كما أحببتُ أبي، ولابُدّ أنْ أعود لرؤيته يومًا ما.

قالتْ ليلى لنفسها وهي تتقلَّب في فِراشِها، بعدما انزاحتْ ذاكرةُ الوَجَع مِن بطنها وروحها إِثْرَ تذكُّرِها لتلك الفترة الصعبة الفارقة في عمرها. تقلَّبت في الفراش، حتى غَفَتْ قليلاً، ثم أفاقتْ وهي تسمع همسًا لطيفًا حولها، كانت تلك بقايا صوتِه في أُذُنِها حين كان يُوقِظُها مِن نومها صباحًا كلَّ يومٍ، ليحدِّثها قليلاً وينطلقا معًا لرَعْيِ الغنم، فقد كان يُصِرُّ على حاجتها للرياضة وللهواء النقيّ المتوافر صباحًا فقط كسلعةٍ نادرةٍ لا يَحظى بها إلا البسطاء.

يومها احتجَّتْ، كانتْ تشعُر ببعض البَرْدِ، فتذرَّعَتْ بأنّها مُضرِبةٌ لأنَّه لم يُكْمِلْ قصة الخضر وموسى وبألّا جدوى مِن الخروج لتُطِيلَ فترة نومِها، لكنَّه قطع عليها طريق العبور نحو أحلامها، وبدأ بالحديث عن القصة لتوِّه قبل أنْ يخرجا معًا، فقال:

- أتعلم أيُّها الإنسان لماذا ذُكِرَ الحوت في قصة موسى؟ ولماذا كان شرطَ اللقاء؟

- مزيدٌ مِن الشروط لإثبات الرغبة؟

- كلا، الله لا يتعامل بهذه الطريقة، لكنَّ الحوت دليلُ السَّعْي حين سَعى موسى إلى مَجْمَعِ البحريْن طلبًا للعِلْم، ورمزٌ كذلك للفَقْدِ، فأنتَ لن تنالَ الكثير إلا حين تَفْقِدُ القليل. فَقَدَ الحوت لينالَ لقاء الخضر.

هزَّتْ ليلى رأسها بإعجابٍ، وحَكَّتْ خدَّها وهي تتواصل بعينيْها كي لا يَقْطَعَ حديثَه، فقال وهو يشدُّ الغِطاء عنها، ويستحثُّها للاستعداد للخروج:

- لذا عليكَ التنازُل التخلّي عن دفء فِراشِكَ للسعي نحو ما تسألُ عنه، لا أعرفُ شيئًا عنكَ، ولكنِّي على يقينٍ أنكَ بلا قَصْدٍ فعلتَ كموسى في رحلتكَ هذه للبحث عن عِلْمٍ ما تطلُبُه أيُّها الإنسان.

سكتتْ ليلى فَزِعَةً مِن ماضيها الذي بَرَقَ ثم هطلتْ بعدَه ذكرياتُها المُؤلمة، فقرَّرتْ أنْ تُخْرِجَه لترتاح، قرَّرتْ أنْ تُخبِرَ العجوز بكلِّ شيءٍ.

(نعم، أخبرته بكلِّ شيءٍ، حتى بقصة اغتصابها، فحين تشعُرُ أنَّكَ تتحدَّث ولا تنتظر العقاب أو الحُكْمَ لن يمنعكَ شيءٌ مِن الحديث، حينما لا شيءَ تخسَرُه، ماذا يدفعك للتكتُّم على أوجاعك وأنتَ دومًا في

حاجةٍ للبَوْح؟ مشكلةُ البَوْح أنَّه بدلَ أنْ يُريحَنا وسط مَن يَعرِفوننا يَجْلِبُ لنا وجعًا أكبر، فنُفضِّل ابتلاع الألم على جَلْبِ ألمٍ أكبر بالندم. فلا تتعجَّبْ عزيزي القارئ، أنْ تخبره بكلِّ شيءٍ وهي الراحلة عنه، لعلَّ الكتمان أحيانًا دليلٌ قويٌّ على رغبةِ البقاء أو الإبقاء على الوضع الحالي لتجنُّب خسارةٍ ما)

*****

بكتْ ليلى وهي تتقلَّبُ في فِراشِها، حينما تذكَّرتْ ما فعلَهَ بعد أنْ انتهت مِن قصَّتِها، بكتْ لأنَّ البكاء وفاءٌ للذكرى، فحين تَستَحضِرُ الذكرى عليكَ أنْ تكون وفيًا لها فتَستحضِرَها بكلِّ انفعالاتها، وإلَّا فهي مُجرَّدُ ماضٍ لا ذاكرة له ولا ذكرى فيه، لذلك يتألَّم المُفارِقون، لأنَّهم حين يتذكَّرون يَجْتَرّون الوجع القديم.

حضنَها بقوّةٍ كأنَّه يَحميها أو يعصر أوجاعها ويمتصَّها داخل روحه ليتركها

نقيّةً بلا أوجاعٍ. بكتْ معه، لأولِ مرةٍ في حياتها تبكي أمام بَشَرٍ، طوال عمرها تبكي نحو الداخل لتَصُبَّ الدموع في بئرُ روحها، كانتْ روحُها مليئة بالدموع في حين كانتْ حياتها جافَّةٌ فلمْ تبكِ مِن قبل قطّ أمام أحدٍ، أمّا الآن وقد امتلأت حياتُها فلابُدّ أنْ تفيض البئر لتجدِّدَ الروح، تَفيض الروح فتَجُود العيون فتغسِلَ الروح، مِن الروح وإليها الدموع.

*****

- فهمتُ الآن، لنُحاوِل أنْ نَفْهَمَ قصَّتك الخاصَّة في قصة موسى العامَّة، لنجعلكَ للحظاتٍ موسى، ما رأيك؟

- هل يجوز؟ أعرف أنَّه لا يجوز.

- هل الله لا يُجِيز؟

- لا أعرف.

- مَن قال لكَ لا يجوز؟

- أسمعُهُم يتحدَّثون.

- هل هم الآن موجودون؟

- لا.

- إذنْ يجوز! ما دام الله لم يُحرِّم أنْ نقول: لو كنتُ مكانَه ماذا سأفعل؟ وما دام الله أعطانا الحلَّ المِثاليّ، إذنْ هو يخبِرُنا ضِمنيًا عن حلولٍ أخرى أقلّ مِثاليةٍ، قد نقع فيها. لقد ذَكَر الأعلى وعلينا وحدَنا أنْ نُدرِك الأدنى لنَتَجنَّبه.

صمتْ قليلاً، ينتظر كلامها، لكنَّها صمتتْ لتنتظر كلامه أيضًا، فقال:

- لو أنَّ تربيتَكَ اختلفتْ، هل سيؤثِّر هذا في حياتك؟

- لا أعرف، ما علاقة هذا بالقصة؟

- الحياة التي نعيشها تزوِّدُنا بخبراتٍ ومعارفَ، مصدر المعرفة يؤدِّي إلى اختلاف الثقافة، وبالتالي اختلافُ مصادر المعرفة بين الناس يؤدِّي إلى تضارب أو تفاوت الثقافات، كموسى والخضر. كان عِلْمُ كلٍّ مِنهُما

مُختلفًا. لو كنتَ تَرْبِيَتي ما كانت هذه الفوضى في نفسك لتحصُل مثلاً.

كزَّتْ ليلى على فكِّها بقوةٍ، بغيظٍ، لكنَّها قالتْ بصبرٍ:

- لهذا فسَّر موسى الأمور بظاهِرِها؟

- ليس فقط أنَّه فسرها بظاهِرِها، لقد فسَّرها حسب قوانينه هو، وليس حسب قوانين الآخر.

- هل يُشتَرط أنْ نَخْضَعَ في فَهْمِنا لقوانين الآخر؟

- لا، لو كُنّا واثقين أننا دومًا على حقٍّ ونعرِفُ كلَّ شيءٍ، لكنْ ما دام قد حصلتْ الفوضى الفكريّة، وما دام هناك شيءٌ غيرُ مفهومٍ، وما دام هناك شخصٌ واثقٌ مِمّا يفعله وهو في موقفِ المُعلِّم ونحن في موقف التلاميذ، فلا ضَيْرَ مِن بعض الشكِّ في فَهْمِنا ومُحاوَلَة فَهْمِ تصرُّف غيرنا.

- ولماذا لم يخبر الخضر موسى بحقيقة الأمر منذ البداية؟

- كان لابُدّ ألّا يُخبِرَه، لأنَّ التعليم هنا ارتبط بالصدمة، لنَقُلْ أنتَ موسى، وواثقٌ جدًا مِن مَوْقِفك، إذنْ لابُدّ أنْ أصدِمَكَ تحت نتيجة الاختبار لتُدرِك

رسالتي حقًا، لم يكن الدرس المستفاد أنْ يعرف موسى بواطن الأمور، بقَدْرِ ما كان الدرس هو أنْ يَعْرِف موسى أنَّه لا يعرف.

في قصة السفينة، تعلَّمتَ أيُّها الإنسان أنّ عليكَ أحيانًا التضحية بالقليل مُقابل الكثير، وفي قصة الغلام تعلَّمتَ أنَّ هناك فرقًا بين ما أنتَ عليه الآن وما ستكُونُه مستقبلاً، قد لا يُعجِبُك حالُك مُستقبلاً أيُّها الواثق!

أشاحتْ ليلى بوجهها، صوتُ العجوز يَهْمِسُ لها مِن خلف سِتارِ الكلمات أنَّكِ المقصودة بالكلام، أكمل:

- والكنز لا يصير كنزًا إلَّا في الوقت المناسب، لو استخرجه الصِّبْية لَمَا سُمِّيَ كنزًا، كذلك كنوز العمر تحتاج إلى دَفْنٍ طويلٍ ومحافظةٍ ورعايةٍ حتى تَخْرُجَ في شكل كنزٍ، كالمواهب وحقيقة النفس مثلاً.

- لو كنتُ أنا موسى، لبقيتُ صامتًا كي أتعلَّم، فالصمت سهلٌ! لا أدري كيف لم يصبر.

- لو كنتَ موسى لاختلفَتِ الأسئلة وتغيَّرتْ الاختبارات. لِنَجْعَلَكَ موسى الآن بكلِّ ما فيكَ مِن نظرتك لنفسك ونظرة الآخرين عنك.

- لو كنتُ موسى وكنتَ أنتَ الخضر، فما هي اختباراتك لي؟

- اسمعيني يا ليلى، هناك...

- قلتُ لكَ لستُ ليلى!

- أيُّها الإنسان، أيُّهما تفضِّلُ: العودة إلى داعش أم إلى بيتك.

- بيتي طبعًا، لن أعود إلى جحيم داعش.

- هل تفكِّر في الانتقام مِنْهم يومًا؟

- لا أدري، لكنني أتمنّى أنْ أسمع أنَّ ذلك الذي آذاني قد احترق.

- كيف وثقتَ بي؟

- قلبي يحدِّثُني أنكَ رجلٌ طيِّبٌ.

- انتهى الاختبار.

التفتَتْ إليه ليلى كأنَّ رصاصةً عَبَرتْ مِن جانبها، كانتْ مَشلولةً تمامًا حتى عن الانفعال، سألته بصعوبةٍ بعد برهةٍ:

- لم أفهم شيئًا.

ضحك وقال:

- الآن سأخبركِ كما أخبر الخضر موسى، حين ناديتُكِ باسم ليلى انفعلتِ بسرعةٍ وغضبتِ لأجل الاسم، وهذا طبع النساء، في حين أنَّ الرجال لا يهتمُّون للتفاصيل، أمَّا رغبتُكِ بالعودة إلى بيتك الذي هربتِ مِنه أصلاً، فلأنَّ الأنثى فيك تنشُد الأمان، في حين أنَّ الرجل لا يبالي بالخطر بل يُفضِّلُ الانتقام بيده مِمّن آذاه، أمّا الثالثة، فحَدْسُ المرآة لا يخطئ لذا تعتمد عليه، عكس الرجل الذي يتعامل مع الأشياء بظواهر المواقف، وليس بحدسه، لقد استيقظ حدسكِ مع صوت الشاب قبل أنْ يؤذيك، وحدَّثك هذا الحدس بخصوصي قبل أنْ تعرفيني، أتذْكُرين خضر الكاتب؟ كيف عرفتِ أنّه سينفعُكِ بشيءٍ ما؟ إنَّه الحدس الأنثوي الذي لا يخطئ مطلقًا.

- أيُعقَل أنْ أكون أنثى؟

قالتْها ثم ذرفتْ دموع الرفض، قال:

- حتى دموعكِ هذه الرافضة هي دموع أنثى، الرجل لا يبكي اعتراضًا،

سلاحُه يختلف لو اعترض أو رفض. لأسألكِ سؤالاً:

- كإنسانٍ، ماذا قدَّم لكِ عليٌّ وبماذا جَنَتْ عليكِ ليلى؟

- لا أعرف!

قالتْها بغضبٍ.

- طوال الوقت عاش فيك عليٌّ، فما هي إنجازاتك؟ هل كان عليٌّ سعيدًا؟

- لم أشعر بالسعادة يومًا.

- أقصد السعادة الداخلية، لا أسأل عن مشاكلك مع الناس.

- كنت دائمًا أحدِّق في المرآة، لو لبس كياني جسد الذكر لكنتُ أفضل حالاً.

- ما زلتَ تفكِّر أيُّها الإنسان بالآخرين، تستمدُّ سعادتك مِن نظرتهم لك. الروح لا يهمُّها ما تلبسه مِن أجسادٍ، لو كان عليٌّ سعيدًا، فالروح هي التي تسعد، أو الأنا الداخلية فيك ترتاح، وما سُمِّيَت الراحة راحةً إلَّا لأنَّها تُستمدُّ مِن الروح وإليها تنتمي.

- لم يكنْ عليٌّ سعيدًا، كان قلقًا حائرًا.

- حين تحتاج للدفاع الشرِس العنيف عن موقفك، اعلمْ أنَّكَ لستَ بخيرٍ ولستَ على يقينٍ.

ثم مرَّ أسبوعٌ، تتذكَّر ليلى كيف مرَّ ذلك الأسبوع، مَرِضَ العجوز مرضًا شديدًا، فكان عليها العناية به طوال الوقت، والاهتمام بالغنم بعض الوقت، حتى شُفِيَ تمامًا، فأخبرتْه برغبتِها في العودة إلى بيتها، فأمَّن لها طريقها مع قومٍ يَعْبُرون الحدود، سلَّموها لآخرين، حتى انتهت رحلة السندباد.

تقلَّبتْ في فِراشِها مرّةً أخرى، فتمدَّدتْ على ظَهْرِها وهي تحدِّق في السقف:

- لماذا لم أخبرْه أنَّه حين مَرِضَ شُفيتُ أنا؟ عجبًا لهذا العجوز! حتى مَرَضِه شفاءٌ لي، لقد وهبَني مشاعرَ لذيذةً لم تعرِفْ طريقها إليَّ مِن قبلُ، كم كنتُ مستمتعةً وأنا أطبِّبُ أوجاعه، كنتُ حين أُقبِّلُ جبينَه المحموم أمتصُّ مِن روحه طعم الأبوّة، وكلَّما كَبُرَ وجعُه كَبُرتْ ليلى فيَّ

وهي تُغدق عليه حنان الأنثى. حين كنتُ أرعى الغنم، كان ممتعًا لي جدًا هذا الاندماج والتأمُّل في الطبيعة، كانت أمتع لحظاتي حين تسْكُن النعاج إلى ظلِّ الشجر، وأسكُنُ أنا إلى ظلٍّ روحي باسترخاءٍ لذيذٍ، علَّمتْني الطبيعة الارتداد إلى الداخل، وإجادة توقُّع تقلُّبات الطقس العاطفيّة، علَّمتْني كيف أسمع أصواتي الداخليّة، وكيف أُنصِتُ لها باحترامٍ، تعلَّمتُ أنَّ الطبيعة مؤنَّثةٌ لكنَّها تَحْمِلُ في ثناياها كلَّ الفصول المُذكَّرة، ومع ذلك لا تحاول تغيير طبيعتها.

كانتْ رعاية الأغنام فرصةً لي لأُدْرِكَ أنَّ الفروق بين المُذكَّر والمؤنَّث في الصورة البدائية أقلُّ مِن تضخيمِنا لها، لم تكن النعجة بحاجةٍ لجَسَدِ الخروف حتى تفعل ما تحبُّه! لم يخبرْها أحدٌ أنَّها مؤنثٌ لتَفْهَمَ نفسها، ولم يُرَبِّها أحدٌ على أنَّها مُذَكَّرٌ لتَتوه في ذاتها.

إيه! يا لهذا الرجل العجوز!

تَذْكُرُ أنَّها حين ودَّعَتْه سألته:

- لكنْ، ما اسمك؟

- لا يهمُّ الاسم، أنا إنسانٌ وكفى، اعتَبِريني لكِ كالخضر لموسى.

هزَّتْ رأسها وعانقته بقوّةٍ ثم رحلتْ.

قامتْ مِن فِراشِها فجأةً، لتَهتِف:

- كيف نسيتُ أنْ أسأله عن سبب بكائه تلك الليلة؟! يا للأنانية المُفرِطة!

ثم تمدَّدتْ بهدوءٍ ثانيةً وهي تقول:

- لعلَّه لا يحتاج لأنْ يبوح، فهو يُجيدُ تلمُّس أعماقه، أو لعلَّني أساله حين أُقابِلُه ثانيةً. المهمُّ أنْ يَعرِف حين أُقابِلُه أنني قرَّرتُ إحياء ليلى ومَنْحَها فرصةً.

تتذكَّرُ آخر كلماته وهو يودِّعُها، هي لا تَذْكُر الآن هل قال تلك الكلمات حقًا؟ هل نطقتْ شفاهُه بها؟ أمْ أنَّه قال شيئًا آخر فسمِعَتْه بقَلْبِها، فتُرجُمان القلب ليس كتُرجُمان العقل للكلمات، هي تَذْكُرُ أنَّه قال لها:

- عليكِ أنْ تُدْرِكي، أنَّ هناك فرقًا بين أنا كما تريدين، و«الأنا» الحقيقية المَقموعة في أعماقك، «أنا» التي تتحدَّثين بها هي أنتِ كُلِّكِ بكُلِّ

حقائقك ووهمك وتصوُّرك عن نفسك، أمَّا «الأنا» فهي ذاتِك المُجرَّدة. سأوضِّح لكِ: لنَفْرِض أنَّك فقدْتِ الذاكرة وتلاشَتْ مِنكِ كُلُّ الأحاسيس المُتراكِمة، ساعتها ستَظْهَر «الأنا» مُجرَّدةً شفّافةً مُتألِّقةً بلا ضبابٍ يَمْسَحُ مَلامِحَها أو يَبتلعُها خلال الطريق. هذه نصيحتي لك.

مالتْ على جَنْبِها، ثم راحتْ في نومٍ عميقٍ، وطيفُ ابتسامةٍ يُراوِغ شفتيْها عن إسبال النوم عليهما.

*****

سارعتْ بلقيس للاتصال بمعاوية لتصُبَّ في أذنيْه الأخبار صَبًّا:

- ألو، معاوية؟ ليلى عادتْ، نعم، عادتْ، وهي تُصِرُّ أنْ أناديَها ليلى، احضرْ بسرعةٍ.

لمْ يستوعب كلَّ تلك المعلومات دفعةً واحدةً، فترك كلَّ شيءٍ وحضر، لكنَّها مَنَعَتْه مِن الدخول، فليلى مُرهقَةٌ وتحتاج للراحة وللنوم العميق. رَجَتْه بشدّةٍ أنْ يكون لطيفًا مع توأمها، وألَّا يُحَقِّقَ معها، فهي ستبوح

بكلِّ شيءٍ وحدها لو ابتلَعا حُبوب الصبر عليها.

بقيا على حالهما يتحدَّثان همسًا، ويَضَعان حلولاً لكُلِّ الاحتمالات المُعلَّقة في جدران الخيال، حتى رنَّ جرس الباب، فقام معاوية يفتحه، فإذا بخضر أمامه يسأل عن بلقيس.

دَلَفَ لكنَّه كان مُحتاجًا للكثير كي يَلِجَ إلى نَفْسِ بلقيس التي ضاقتْ عنه كسَمِّ الخِياط للجَمَل، فصدَّته بقوةٍ، حينما خرج كان مُحمَّلاً بهدايا بلقيس الثقيلة مِن التُّهم والشكوك وجفاء المعاملة.

مرَّتْ ساعاتٌ كثيرةٌ وليلى قابعةٌ في غرفتها لا يعرفون عن حالها شيئًا، حتى دقَّتْ الساعة قاطِعَةً عَشْرَ مسافاتٍ عبْر صحراء الزمن، حينما فتحتْ ليلى الباب، ووقفتْ أمامهما تنظر إليهما وتتلفَّتُ حولها قائلةً:

- مَن أنتما؟ أين أنا؟ مَن أنا؟!

انهارتْ كلُّ أفراح بلقيس وانطفأتْ شُموع الاحتفال الكبير في قلبها، وأحسَّ معاوية بخيبةٍ كبيرةٍ لتلك الطريقة القاتلة لفُضوله الذي سيْطر عليه طوال فترة انتظاره.

حاولتْ بلقيس كثيرًا بعدها تَرويض ذاكرة توأمها، بذلتْ جهدًا خارقًا حتى تَعِبتْ، وحاول معاوية بأسئلته أنْ يفهم أكثر، لكنْ بَدَتْ كلُّ الطُّرق تؤدِّي إلى نتيجةٍ واحدةٍ: حريقٌ في الذاكرة، أتى على كلِّ ما كان؛ ليلى لا تَذْكُرُ شيئًا مِن الماضي القريب أو البعيد.

*****

« ٥ »

ماذا يحدث لو سيطر عليكَ صوتُ «الأنا» الحقيقية فيكَ لكنَّكَ أجَّلْته قليلاً؟ وكيف ستكون علاقتك بنفسك لو استمعتَ لأعماقك بوضوحٍ وتمرَّفتَ بِناء على ذلك؟ ما بين خضر وبلقيس مسافاتٌ ضوئيةٌ مِن التصالُح مع الذات.

- أنا هو أنتَ، لكنني انسحبتُ مِن نفسي لأراني أوضح مِن هُناك.

قال خضر لنفسه، وهو يحدِّق عبر المرآة، مُبتعِدًا عنها قليلاً، ليرى نفسه أوضح.

كان صوتُ المغنيّة الفرنسية إنديلا في أغنيتها الشهيرة «رقصٌ أخيرٌ» يُثير مِلْح دمه فيتحرَّك على الإيقاعات كأنَّه مَلِكٌ في حفلته الأخيرة قبل أنْ يتنازل عن عَرْشِه، كان يُراقِب نفسه في المرآة وهو يؤدِّي ذلك الرقص المنفرد، وكلَّما اشتدَّ صوت المعنية رفع نفسه على أصابع قديمه، وكلَّما كرَّرتْ كلماتِها دار حول نفسه فاتحًا يديْه، كلُّ ذلك وهو يراقب نفسه وإيقاعات قلبه، وسيل أفكاره، ليصطاد مِنه السَّمك الذهبيّ الذي حرَّك المياه الراكدة في انفعالاته التي تعوَّد على ثباتها بصرامته.

كان كلَّما رقص تخيَّل بلقيس بين يديْه، أو على المسرح جَذِلةً مُنتشِيةً، ومع الصوت الأوبيرالي العاليّ هفا قلبُه نحو مُختبره السريّ الذي أَطْلَعَها عليه، مع تلك الانفعالات راقب ملامحه خلسةً في المرآة، كلَّما حَزِنَت الأغنية أو ضَجَّتْ بالألم كان يَلْمَحُ في المرآة طيفَ بلقيس الشاحب، كان

الحزن يسيطر على ملامحها فينعكس في عيني قلبه شعورٌ بأنّه البطل الشرير في الرواية.

انقلب سروره إلى شعورٍ آخر، لأول مرةٍ تتمرَّد عليه ذاتُه، وتَنْفَلِتُ مِنه أشباحٌ كثيرةٌ حاصرته طالما أخرَسَها وحَبَسَها في أعماقه طوال الفترة السابقة حتى ثارت عليه، هو يعلم أنك طالما لستَ بخيرٍ ولا تشعر براحةٍ، إذنْ فانتظرْ العاصفة التي ستُطيح بكلِّ ثباتِك، توقَّعْ ساعتها أنَّ «الأنا» فيكَ صاخبةٌ تريد قول شيءٍ لا تريد أنتَ سماعه، هذه الأنا اللئيمة اللحوحة التي تعشق الظهور، التي يسمُّوها الضمير! تبًا لها كم هي حاضرةٌ، فلْأَسْتَمِعْ لها إذنْ، فما باليد حيلةٌ. (هكذا كان يستمع لنفسه تاركًا لها كامل المدى للصراخ في أعماقه القلقة)

جلس على المقعد، والأغنية تتكرر مرةً بعد مرةٍ، فالأغاني عنده مُهمّة في جلسةِ تحضير الأفكار واستدعائها مِن بئر الأعماق.

- تفضَّلْ.

كان قد خرج مِن ذاته، ليجلس بعيدًا يُراقِبها، ثم يستمع إلى أعماقه،

طلبًا للراحة.

- هل أنتَ مرتاحٌ؟ لقد أتعبتني معك، وخسرتَ كثيرًا.

- لماذا أتعبْتُكَ؟ تتعاطفين يا نفسُ مع بلقيس، هل تتحالفين معها ضدّي؟ هل ستنقلبين عليَّ؟

- لقد ظلمتَها.

- لا أحبُّ دور الضحية، لم أظلم أحدًا، بلقيس التي ترى أنني الشرير في الرواية، هي أيضا ظالمةٌ بعض الأحيان، لو كانت ملاكًا لكنتُ شيطانًا، لكنْ كلانا بشرٌ! لكنَّها تعشق تمثيل دور الضحية، هي الآن في قمَّة المُتعة الفنية، وهي تمارس لأول مرةٍ دور المظلومة التي استغلَّها أحدُهم لتحقيق مآربه الشخصية، نسيَت النجاح الذي قدَّمتُه لها، والشهرة، نسيتْ أنني أحببتُها حقًا، وما دامت العبرة بالخواتيم كما في أول الرواية، فتوأمُها لم يخسرْ شيئًا، كان لابُدّ أنْ يخوض حربه الشخصية، في هذه الرواية لم يخسر أحدٌ، لأنَّ الجميع كَسِبَ فَهْمَ نفسِه، الخسارة فقط حين تخسر نفسك وتعجز عن فهمها، لقد قدَّمتُ للجميع خدمةً

عظيمةً.

- وماذا قدَّمتَ لنفسك؟ كذلك، لا أتحدَّث عن هذه، بلقيس تركت التمثيل وأنتَ تعرف هذا.

- دومًا هناك بابٌ مفتوحٌ، لن أحتكِرَها، يُمْكِنُها التمثيل في مكانٍ آخر، فالحقيقيّ لا يزول، إذا كانت تحبُّ المسرح ستعود، لا أتحمَّل مسؤولية قرارها ذلك.

- وأنا؟

- أنتِ ماذا؟

- ظلمتني أيضًا.

- كيف؟

- منذ متى لم تجلسْ معي؟ ولم تستمع إليَّ؟ أتظنُّ أنكَ حين اتفقتَ معي قبل سنتين، ثم علَّقتني على جدران روحك في إطارٍ تحتفظ به للذكرى أنني لن أهرب خارج الصورة؟ ألمْ يخطرْ لكَ أنَّ غبار الأفكار قد

يحمِلُ طَلْعًا جديدًا فأحمل بثمرةٍ شريرةٍ؟ كنتُ قد فسختُ عقد حسن النية بيننا، فهل عرفتَ؟ أنتَ العاقل فكيف نسيتَ؟ أنتَ الواعي فكيف غفلتَ؟ أنّ كلَّ شيءٍ يتغيَّر؟ الشيء الثابت الوحيد هو حتميّة التغيير، فكيف رَكَنْتَ إلى ما كنتُ عليه ولم تحاول مرةً طوال تلك الفترة سؤالي إنْ كنتُ بخيرٍ؟ أو لو أنا راضية عمّا تفعله.

- وما سبب الاعتراض؟ ألمْ نتَّفقْ أنَّ بَحثي هذا يخدم الإنسانية كلَّها؟ ألمْ نتَّفقْ أنْ نسلِّط الضوء على ما يحدث؟ أنا لمْ أصنعْ جديدًا، أنا فقط درستُ ظاهرةً غَفِلَ عنها العالَمين، ظاهرةً لشدّة وضوحها لم يَرَها أحدٌ، فالناس عبيدُ العادة أعداءُ الدهشة مِن الأشياء.

استمعي إلى هذه المُغنيّة البارعة، ألمْ تسألي نفسك يومًا كيف تستطيع التلاعُب بمزاجِكِ هكذا؟ إنَّها طاقة الأصوات يا عزيزتي، تعرفين ذلك جيدًا، فما الذي تعترضين عليه؟

قالها بقلقٍ، وكأنَّه على أُهبَةِ الاستعداد لسماع حُكْمٍ لن يَسُرَّه مِن قاضٍ لا يَقْبَل الرشوة إذا نطق.

- هناك ما تغافلتَ عنه، تذكَّرْ نتائج بحثك وستَفْهَم وحدَك. تذكَّرْ دون مُكابَرةٍ، تذكَّرْ وعليكَ مِنكَ سلطانٌ وقاضٍ، تذكَّرْ لترتاح، تذكَّرْ وَضْعَ الحُكْمِ قبل المُداولة، ففي مُحاكمات النفوس القاعدة الذهبية: المُتهَم مُخطئٌ حتى تثبت براءته، حتى لا تُزيِّن له نفسه ما هو فيه عنادًا، فالنَّفْسُ طفلٌ مُدلَّلٌ أنانيٌّ. تَفَضَّلْ.

- حسنًا، بحثي كان رائعًا، بدايةً، حينما لاحظتُ أنَّ الكلام الذي ينطقه الناس يؤدِّي وظيفةً فوق وظيفةِ التواصل، كلُّنا في لحظةٍ نتحوَّل إلى مرايا عاكسةٍ، والطاقة المُنبعِثة مع الكلمات هي ذلك الضوء الذي يَسطَع على تلك المرايا، سأعطي مثالاً:

كثيرٌ مِن الناس يتحدَّثون عن الحب، لكنَّ كلامَهُم لا يؤثِّر، لأنَّهم يَغْفَلون ما توصَّلْتُ إليه، فليس المهمُّ أنْ تتحدَّث عن الحب فقط، لكنْ مُهِمٌّ جدًا أنْ تتحدَّث عن الحب بِحُبٍّ، حتى يتلقّى الآخر كلامك بِحُبٍّ فيَقْبَلَه. كلامك ما لم يَكُنْ مُحمَّلاً بطاقةٍ شعوريةٍ كافيةٍ، فإنَّ مرايا النفس العاكِسة ستظلُّ باهتةً لا تتأثَّر بك.

حين تتحدَّث عن الحبِّ بشهوةٍ فالشيء الوحيد الذي ستُثيرُه هو الشهوة، لأنَّ الطاقة مِن حيثُ خرجتْ حيثُ حلَّتْ، هذا عجيبٌ! رغم أنَّ الجميع يقوله، لكنْ بطريقةٍ بدائيةٍ لا يفهمونها إلا بمعناها الأوَّلي: «ما خرج مِن القلب وقر في القلب، وما خرج مِن اللسان لم يتجاوز الآذان» عظيمٌ أنَّهم يدركون ذلك! لكنْ غبيٌّ جدًا أنَّهم لا يُدرِكون أبعاد ذلك.

وهذا معناه، أنَّكَ يمكن أنْ تُسيطِر على مِزاج غيرِك وأحيانًا وعْيَه مِن خلال تحكُّمِكَ في كلماتك، أحيانًا شعورٌ حقيقيٌّ في عملٍ أدبيٍّ باهتٍ يجعله أكثر سطوعًا، وهذا يفسِّر بعض الأعمال الأدبية الباهتة تقنيًا، الرائجة شرائيًا، إنَّ السرَّ يَكْمُنُ في تلك الحالة المزاجية التي اعْتَرَتِ الكاتب وقتها، وحمَّلَها كلماته فانتقلت إلى القارئ الذي أصابته خمرةٌ وهو يُحلِّقُ في عوالمَ أخرى>

لقد استطاع الكاتب ساعتها أنْ يَنْقُل القارئ إلى تجربةٍ لذيذةٍ لم يتوقَّعْها، لقد أدخله في عالمه الشخصي، لقد نقل إليه تجربته الشعوريّة وهو لا يدري، فأحبَّ كما أحبَّ، وغَضِبَ كما غَضِبَ، وحَزِنَ كما حَزِنَ، لذا صرخ

أخيرًا مِن فَرْطِ اللذة: الله! وهو لا يعرف لماذا انتشى ولماذا طَرِبَ ولماذا أعجبَه العمل، كلُّ ما يدركه أنَّه شعر بشيءٍ ما يتحرَّك داخله، كأنَّه صُوفِيٌّ سيْطَر عليه سيِّدُه، هذا هو السِّحر! سِحر الكلمات! سِحر الأصوات، سِحر التجربة الشعوريّة!

في حين أنَّ عقله لا يَعي شيئًا مِن ذلك ويَعترِض بصمتٍ على هذا الإعجاب البدائيّ، وأحيانًا ينتقد أعمالاً أفضلَ قيمةٍ لأنَّها لم تحرِّك اللذة القلبيّة فيه، رغم أنّها مُثيرةٌ للعقل، كلُّ هذا والكاتب والقارئ جاهِلان بما يجري.

شيءٌ آخر، في مُختبري الخاصّ، وجدتُ أنَّ أقوى الطاقات هو ما غُلِّفَ بالحُبِّ، كنتُ أظنُّ الغضب أقوى، لكنَّ طاقة الغضب ريحٌ تشدُّ المرء على نفسه حين يسمعه فيبدِّدُ قوّة الاثنين القائل والمُستَمِع، لكنَّ الحُبَّ كالشمس تتغلغل في مَسامِ الروح فتجعلك بلا وعيٍ مِنكَ تَنقادُ هروبًا إلى ظلِّ ما يقوله الآخر.

- قِفْ هنا!

- ماذا؟

- مازلتَ تُراوِغ، ألا تلاحظ أنَّكَ تُدافِع؟ والدفاع عادةً شعورٌ خفيٌّ بالذنب؟ ابحثْ عمّا يُضايِقُك لا ما يُفرِحك.

- بلقيس، ما زالت تُزعِجُني.

- أتحبُّها؟

- نعم أُحبِّها.

- لماذا خسرتَها؟

- كنتُ أنانيًا في الاحتفاظ بها والاحتفاظ ببحثي، والاحتفاظ بعنادي تجاه الحب، كنتُ أريد الاحتفاظ بكلِّ شيءٍ دون أنْ أقدِّم أيَّ شيءٍ.

- إنْ كنتَ تحبُّها، فلماذا لم تحدِّثها عن الحُبِّ بحُبٍّ؟ لعلَّ شيئًا غيرَ الحُبِّ قالته لكَ ولا تريد تذكُّره.

- ماذا؟ يا إلهي! بلقيس، الآن فهمتُ، حين قالتْ لي كُفَّ عن مُرواغتي، وتحدَّثْ دون تأثيرٍ عليَّ، أحقًا كنتُ غبيًا إلى هذا الحدِّ؟ أنا صاحب

البحث فشلتُ في تطبيقه على نفسي حتى خسرتُ بلقيس!

الآن فهمتُ ماذا قصدتْ بلقيس وماذا انتظرتْ؛ لم تكنْ بلقيس تنتظر كلمات الحب، كانتْ تنتظر طعم الحب في كلماتي، كنتُ كمنْ يحدِّثُها عن العسل ويمنعُها مِن تذوُّقِه، لم يَحْدُث مرةً أنْ حدَّثتُها عن حُبّي لها بحُبٍّ بشغفٍ باحترامٍ، لهذا لم تصدِّقْني لحظةً.

بلقيس، بلقيس!

- انتَظِرْ قليلاً، هناك شيءٌ آخرُ! أنتَ تتهرَّبُ.

لكنَّه صمَّ أذنيْه عن الصوت، وترك ضميره على الأريكة ليغفو مِن جديدٍ باذخَ اليأس، وخرج على عَجَلٍ.

*****

- ليلى.

كانتْ ليلى تتأمَّل ألبوم صُوَرِها الذي أعطتْه لها بلقيس على أمل أنْ

تتذكَّر، كانتْ تُشاهِد نفسها طفلةً صغيرةً وتضحك، لكنَّها لا تتذكَّر، بلقيس تُحاوِل معها طوال الوقت، تجتهد كثيرًا لحَشْوِ ذاكرتها بالذكريات، لكنَّها تتقيَّأ كلَّ شيءٍ كمريضٍ عافَتْ نفسه الدواء وبات ينتظر معجزةً.

تنهَّدتْ بلقيس للمرَّة الأخيرة، مُطيِّرةً بالزفير بقايا حلمٍ راودها بالسفر، قالتْ:

- ليلى، لا تقلقي مِن شيءٍ، سأظلُّ بجانبك طوال الوقت، سأكون مرآتك لفترةٍ.

- أنتِ صديقتي الصَّدوقة فعلاً. لكنْ، هل كنتِ ستبتعدين؟

- كنتُ أفكِّر بالسفر، العودة إلى إنجلترا، اشتقتُ للمسرح الإنجليزيّ.

ثم ابتسمتْ لها، وحَضَنَتْها:

- لو كنتِ بخيرٍ لسافرنا معًا. لكنني أخاف عليك مِن التغيير المفاجئ.

- سافري!

قالتْها بثقة الآمر، فابتسمتْ بلقيس، تريد ألَّا تَشغَل بالَ ليلى، لكنَّ ليلى

قالتْ بحزمٍ:

- سافري يا بلقيس، لا تسمحي لخضر بتدمير مُستقبلِك.

- ليلى! ليلى أنتِ، هل أنتِ...؟

أمالت رأسَها وهي تحدِّق في توأمها، وتتلو صلاةً بعينيْها: كوني بخيرٍ، كوني كما أتمَّنى!

ابتسمتْ لها ليلى، وقد مسحتْ مِن عينيْها آثار نَزْفِ القلب، وهزَّتْ رأسها مُؤكِّدةً.

- منذ متى؟

- منذ متى لمْ أتذكَّر؟

ثم لم تستطع أنْ تتوقَّف، تلك الدمعة لم تكنْ يتيمةً.

- لم أفهمْ، أنتِ لمْ تفقدي الذاكرة؟ وما كلُّ ما مضى؟

- كنتُ مُحتاجةً لذاكرةٍ جديدةٍ، كنتُ أعلم أنني لو نسيتُ فسوف تُذَكِّرونني، قتلتُ عليًا في داخلي لكنه كان حيًا بينكم، كان عليَّ فِعْلُ

ذلك لأقتل عليًا فيكم، وإلّا فإنَّ ليلى ستذوي. كنتُ بحاجةٍ لذاكرةٍ جديدةٍ، لحياةٍ مُجرَّدةٍ مِن سَوابق الأحكام، وتَوابع التوقُّعات، كنتُ بحاجةٍ لأراني في عيونكم كما أنا.

كانتْ تتكلَّم بوجعٍ وحُرقةٍ، كانتْ تُدافِع عن نفسها كأنَّها تعتذر.

حضنتْها بلقيس وبكتا معًا، كانتا توأمًا حقيقيًا في تلك اللحظة، توأم جسدٍ وروحٍ، قالتْ بلقيس وسط دموعها مُعاتِبةً:

- هل كنتِ تظنِّين أننا لن نتقبَّلك كما تريدين؟ يكفينا عودتك، أخطأنا في حقِّك كثيرًا لكنَّكِ لم تُعطينا حقَّ الاعتذار.

- ليس هكذا، كنتُ بحاجةٍ لأراني بينكم ليلى مع طيِّ الماضي كاملاً، خِفْتُ أنْ يَسحَب عليٌّ ثوبَه المُرقَّع على ليلى فيُشعِرها بالبرد. سامحيني.

- سامحتكِ.

- الآن يمكنكِ السفر وأنتِ مُطمئنَّةٌ.

- هل سنُخبِر معاوية؟

- ليس الآن، دَعِيه لما هو فيه، فبعض الناس لا يُمكِن تغييرهم، طاقتُهم الفكرية لا تُتيح لهم فهمًا أعمق. معاوية دائمًا يعيش خارج نفسه، يحاول أنْ نكون نحن بخيرٍ من وجهة نظره، ليشعُر أنَّ كلَّ شيءٍ بخيرٍ مِن الخارج. لا شيءَ داخليٌّ.

- ليلى! أنَّى لكِ هذا؟ ما هذه الحِكَم التي أسمعُها؟

ثم قهقهتْ عاليًا، وشاركتْها ليلى الضحك بلا تعليقٍ وطيفُ العجوز يبتسم لها مُخترِقًا الجدران الثقيلة.

*****

- قُمْ، قُمْ وكلِّمْني.

- لا أريد، إهمالكُ المُتواصل لي يُمرِضُني. أنا مُكتئِبٌ مِنك.

- قلتُ لكَ قُمْ.

- قلتُ لكَ ما أنا بقائمٍ! أنتَ لا تكلِّمُني ولا تبحث عني إلَّا حينما تتورَّط في فشلٍ جديدٍ. كلَّ مرةٍ تَسْخَرُ مِنّي، وحينما تَشْعُر بفشلِكَ وضِيقِ

صدرِكَ، تُخْرِجُني مِنه للتهوية فقط، ثم تُقْفِلُ عليَّ، هل تظنُّني المَارد في المصباح السحريّ؟ تَفْرُكُه كلَّما ضاق جيْبُك، أو صدرُك أو نَضَبَ إبداعُك وانقلب السِّحْرُ عليك؟

- هذه المرة أحتاج إليكَ حقًا، أنا في ورطةٍ، على الأقل اسمعْني.

- هل أنا ضميرك أم طبيبك النفسي أم موظفٌ عندك؟ ما دوري في حياتك يا خضر؟

- أنتَ ضميري ومرآةَ ذاتي وحاجتي لأفهم أكثر. الكلُّ يحارِبُني الآن، ساعِدْني لأتصرَّف.

- أها! تريدني محاميًا لكَ، وليس قاضيًا!

كان خضر في قمَّة غضبه وهو يحاول فَهْمَ سبب ما جرى معه، بلقيس تصدُّ دونه الأبواب، والمسرح يرفض نُصوصَه ما لم تمثِّلْها هي، لماذا؟ أنا البطل الحقيقيُّ هي مجرَّدُ مُمثِّلةٌ! ومسرحيّون آخرون ينالون الحظوة والشهرة، عاري القدمين والبساط مُمَزَّقٌ، ما العمل؟

تثاءب ضميره وقال بصوتٍ ضعيفٍ:

- ما تفكِّرُ فيه يَضُرُّك، فقط مَزيدٌ مِن الكراهية والفضائح والصعود على أكتاف المواقف. أنتَ لا تهتمُّ لأخطائك وإدراك أسباب ما أنتَ فيه، كلُّ ما يهمُّك ألَّا يحدُث هذا كلُّه بأيِّ ثمنٍ.

نفض عنه تلك الأفكار المزعجة كذبابةٍ ثقيلةٍ لحوحةٍ في شتاءٍ باردٍ، رفع سمَّاعة الهاتف واتصل بصديقةٍ صحفيّةٍ لترتيب لقاءٍ صحفيٍّ معها. الآن في عزِّ البرد واشتداد الظلام، لابُدّ مِن بعض الأضواء، لابُدّ مِن جرعة شهرةٍ مهما كان ثمنها. هكذا يفعل العقلاء والسياسيون، لا وقت لحديثٍ داخليٍّ، فالأمر مُستعجلٌ.

- أنتَ مبدعٌ في الهدم كإبداعك في البناء!

- هذه المرة وفقط، ثم سأصلح الأمور.

*****

في المطار، لمحتْ بلقيس صورة خضر في الصفحة الأولى للجريدة الثقافية، وعنوانًا مثيرًا للجدل في لقاءٍ صحفيٍّ، نَمْنَمَها فضولُها فحكَّتْه

بشراء الجريدة، صعدت الطائرة، وقعدتْ تقرأ، وهي تهزُّ رأسها بأسفٍ، لأَجْلِ هذا كان يتَّصل بي إذن، كما العادة، لا جديدَ تحت الشمس، خضر في أزمةٍ، يتجاوزُها بأزمةٍ أخرى، كي يكسب الجمهور يخسر الزملاء، وحين يكسب الزملاء ستكون الصحفيّة ضحيّةً، وسيُراضيها بعد حين، لأنَّه سيحتاج إليها في أزمةٍ أخرى جديدةٍ.

هل يعي خضر ما يفعله؟

*****

حتَّى مَتَى؟

هل تنتهي رحلةُ البحث عن الذات؟

جلستْ « أنا» و»الأنا»، عاليًا تُراقِبان الناس التي تأتي وتروح في صعيدٍ كبيرٍ مِن الخلق، وقد امتلأ كلٌّ مِنهما بجُروحٍ وخُدوشٍ كثيرةٍ، حتى كانت ساق «الأنا» ملفوفةً بضماداتٍ، ووجه «أنا» مليءٌ بالكَدَمات، وقد تساقطتْ أجزاءٌ مِن أقنعةٍ تلبسها، وكأنَّ وجهها فسيفساءُ ملوَّنةٌ أكلَ الدهر عليها وشرب وتخلَّعتْ كأسنان العجوز.

قالت «الأنا» وهي تضع يدها على ظَهْرِها:

- لقد تعبتُ.

هزَّت» أنا» رأسها مُوافِقةً وهي تستصعب الكلام للكدمات في الوجه، ثم قالتْ بعد أنْ بلعتْ ريقها:

- أعترفُ أنكِ بارعةٌ، وأنني لا يمكنني هزيمتك.

- أنتِ كذلك، عنيدةٌ ويصعب إقناعك.

- بالعكس أنا سهلة الإقناع.

- يقنعكِ كلُّ ما هو خارجيٌّ.

- ألمْ أستجبْ لكِ أخيرًا؟ انظري إلى ليلى وبلقيس، لقد حقَّقتِ نجاحًا باهرًا.

- وانظري إلى خضر، لقد حقَّقتِ نجاحًا عظيمًا.

- لا تكوني طماعةً، ليستْ كلُّ النفوس سواءٌ.

- صحيحٌ، ما لمْ يبدأ الأمر مِن منطقة اللاوعي والانتباه لصوته، وسطوته الخفيّة على الوعي، وما لم تدرك النفس حقيقة الأمر، فالصراع قائمٌ.

ثم قالت «الأنا» تحدِّثُ ذاتها:

- يبدو أنَّ العدو الحقيقيّ هو النفس وليس «أنا»، فهي مسكينةٌ لا تملِك إلّا أنْ تستجيبَ لِمَا يدور حولها، والنفس هي التي تستدعي الصوت الذي تريده، سواءً أكان خارجيًا أو داخليًا، يبدو أنني ظلمتُ «أنا» في الأخير، لو أنَّ النفس تستجيب للأعماق، تنتبه للاوعي فيها، وللضمير المُرفْرِف في حناياها، لما تَعِبَ بَشَرٌ.

قالتْ لها «أنا»:

- معكِ حقٌّ، لا ذنبَ لي، النفوس هي التي تتلوَّن وتقرِّر لِمَن تستجيب، كلانا يسعى لإثبات وجوده ومحاولة مساعدة النفس لفَهْمِ ذاتِها أكثر، كلانا يرفَعُ عقيرته بكُلِّ قوَّته ليكون، وما لم تستمع النفس للصوتيْن سيظلُّ الأمر حربًا، ما لم توفِّقْ بيننا فالبشر سيظلُّون على حالهم تبتلِعُهم الفوضى النفسيّة وتتقاذَفُهم الحيرة الفكريّة في مُحيطات الأسئلة.

- أتتجسَّسين على أفكاري؟! كنتُ أحدِّث ذاتي! بكُلِّ حالٍ تتحدَّثين عن الأسئلة، هذا لو سألوا أنفسهم! بعضُهم يعيش ويموت ولا يسمع لي

حسيسًا، يخنُقُني ويظنُّ نفسه بخيرٍ.

- أغلبُ الناس منافقون.

- لا لا، اسأليني أنا، المنافق يسمع صوتي بوضوحٍ، لكنني أتحدَّث عمّن يظنُّ نفسه بخيرٍ وهو في أسوأ حالٍ. عن التناقُض أتحدَّث وليس النفاق أو الرياء.

- لم أفهمْ، فأنا تخصُّصي السطح وساحتي الوعي، ولا أعرف شيئًا عن الأعماق واللاوعي صاحبكِ هذا.

- سأخبرك، المنافق لا يقلق، المنافق يسمعني ويخنقني، ولو سمع صوتًا خارجيًا كصوتي كَبَته وبَكَّته، أمّا التائه فهو نفسٌ قلقةٌ لوّامةٌ مُستعدِّةٌ للتراجُع عن موقِفِها. وأنتِ أخبريني عن الآخر الغريب فيكِ، كيف يحصل هذا؟

تنهَّدتْ، ثم أسندتْ رأسها على «الأنا» وقالتْ:

- النفس تخاف وترغب، وما بينهما تهتمُّ لصورَتِها في عين غيرها، تحاولين

أنْ تتصدَّري المشهد لكنَّ الصوت الخارجيّ خادعٌ قويٌّ، للعيون دوْرها في الخداع، وأحيانًا نحبُّ أنفسنا في عيون الآخرين أكثر مِن اهتمامنا برضانا الذاتيّ عنها، لا أُخفيكِ ذلك.

- هل يشترط للنفس كي تكون مَحظيّةً في القلوب أنْ تُخفِي حقيقتها؟

- لا، ولكنَّ المعادلةَ شاقّةٌ، والمؤثراتِ كثيرةٌ.

- والحلُّ؟

- لا حلَّ، انظري إلى تلك النفوس تحتنا وهي تتخبَّط، الحلُّ أنْ تفهم كلُّ نفسٍ نفسها ثم تُثبِّتها، وتقدِّمها للناس كما هي دون انتظار حُكْمٍ أو لِنَقُلْ أنْ تَعِيَ لِحُكْمِهم قبل أنْ تتبناه.

سكتت «أنا» ثم قالت:

- فيَّ من الطمع، وعندي من الفضول ما يجعلني أشتهي مرةً منطقة اللاوعي لأزورها.

- سأخبركِ سرًا، أحيانًا تقفين على حافة اللاوعي، فتؤثِّرين فيه وتؤثِّرين

عليَّ؛ كلمةٌ صغيرةٌ تسمعينها من الخارج أو تهمسين بها للنَّفْس، تبتلعينها بلا اهتمامٍ فتتدحرج حتى تصل إليَّ، تبدأ النفس تتأثر بها، تشعُر النفس بالتغيُّر ولا تعرف لماذا هذا يحصل، وأحاول جاهدةً كشف الكذبة بصوتٍ ضعيفٍ، لأنبّه النفس لأستدرك الخطأ لكنَّ الأمر يستغرق وقتًا طويلاً.

- حتى ذلك الحين، هي الحرب إذن.

- لا تهدئين، لا تستسلمين.

- كلانا يفعل.

- حربنا النفوس، حربنا خفيةٌ، يظنُّ المرء نفسه بخيرٍ وهو على حافّة الانهيار.

- هيا لنكمل، أنا الآن بخيرٍ.

- وأنا لا أَمَلُّ.

تمت بحمد الله

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com